حسين البرغوثي

الآثار الشعرية



حسين البرغوثي

"الآثار الشعرية"

الطبعة الأولى (٢٠٠٨)

وزارة الثقافة

بيت الشعر

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٤٠٦٩٥٦ *٢٤٠٦٩٥٧

فاكس: ٢٤٠٦٩٥٥

ping@ping-palestine.org
www.ping-palestine.org

حسين البرغوثي

الآثار الشعرية

العرّافُ البليغُ وحكمةُ المتاهة

"كتابٌ نفسي"
(حُسين البرغوثي)

مُرَاد السُّودَاني

قَـدَّمَنِي فِي العَـامِ (١٩٩٩) عِنْـدَمَا أَصْـدَرْتُ مَجْمُـوعَتِي الـشِّعْرِيَّةَ البِكْـرَ (رَغَبُـوت)، وَكَـانَ صُـدُورُها بِتَـأْثِيرٍ مِنْـهُ، فَمَـنْ أَنَا حَتَّـى أُقَـدِّمَ لِمُعَلِّمِي؛ هذَا البَلِيغِ الفَذِّ، وَالمُقْتَرِحِ الشُّمُولِي!

أَخِيرًا.. تَرَى آثَارُهُ الشِّعْرِيَّةُ الكَامِلَةُ النُّورَ، بَعْدَ انْحِجَابِهَا سَنَوَاتٍ خَلَتْ، وَحُسَيْنِ البَرْغُـوثِي الـشَّاعِرُ مَـا زَالَـتْ أَعْمَالُـهُ هـذِهِ بِحَاجَـةٍ إِلَى إِضَـاءَةٍ كَاشِـفَةٍ، لِلتَّعَـرُّفِ إِلَى اقْتِرَاحَاتِـهِ وَتَجْرِيبِـهِ المُخْتَلِـفِ فِي الـشِّعْرِيَّةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ وَالعَرَبِيَّةِ.

فِي مُحَاوَلَتِـهِ لِتَقْـدِيمِ نَفْسِهِ، قَـالَ مَـرَّةً: "كُـلُّ تَقْـدِيمٍ تَقْلِيصٌ، وَأَمَّـا الـشِّعْرُ فَوَجْـهٌ كمِّـيٌّ غَـيْرُ مُقَلَّـصٍ إِلَى تَفْـسِيرَاتِهِ. إِنَّـهُ لَـيْسَ "مَعْنَـى التَّجْرِبَـةِ، بَـلِ التَّجْرِبَـةُ ذَاتُهَـا بِالنِّسْبَةِ لِي. هُنَـاكَ شِـعْرٌ - ذَاكِـرَة، يَـسْتَمِدُّ حِبْرَهُ مِنْ لُغَةٍ مُوَازِيَـةٍ، مُتَـذَكِّرَةٍ، مُفَـسِّرَةٍ، وَهُنَـاكَ شِـعْرٌ قِيمَتُـهُ كُلُّهَـا فِي

الزَّلْزَلَةِ. إِنْتَاجُ زَلْزَلَةٍ، وَنِتَاجُ زَلْزَلَةٍ. أَقْصِدُ أَنَّهُ تَوَتُّرٌ يُلْمَحُ خَلْفَ، أَوْ فِي، أَوْ تَحْتَ المَوْجُودَاتِ وُجُودًا لُغْزًا"، فَالشِّعْرُ لَدَيْهِ خَلْخَلَةٌ لِلرَّاكِدِ وَالثَّابِتِ، وَتَوَتُّرٌ مَحْمُولٌ عَلَى الإِلْمَاحِ وَاسْتِبْطَانِ الزَّلْزَلَةِ. وَيُضِيفُ: "أَمَّا الشَّاعِرُ، فَالزَّلْزَلَةُ وَطَنُهُ الأُمُّ. حَرَكَةُ الأَشْيَاءِ تَرْفَعُهُ نَحْوَ مَقَامَاتٍ أَعْلَى، أَوْ أَنَّ حَرَكَةَ ذَاتِهِ تَرْفَعُ الأَشْيَاءَ إِلَى عُلُوٍّ شَاهِقٍ لاَ يَسْتَقِرُّ دُونَ الهَاوِيَةِ. مَا هُوَ العُلُوُّ إِنْ لَمْ يَكُنْ طَرِيقَةً أُخْرَى لِخَلْقِ الهَاوِيَةِ؟ وَالشِّعْرُ، بِالنِّسْبَةِ لِي، حِوَارٌ مُرْعِبٌ مُسْتَفِزٌّ، وَلَهُ نَشْوَتُهُ بَيْنَ القِمَمِ وَالهَاوِيَةِ، بَيْنَ اليَقَظَةِ وَالحُلُمِ، بَيْنَ المَوْتِ وَالحَيَاةِ، بَيْنَ المَوْجُودِ وَالوُجُودِ.. إِنَّهُ حَدْسٌ بِأَنَّ كُلَّ الكَوْنِ صُدْفَةٌ، وَبِأَنَّ الصُّدْفَةَ لاَ تُفَسَّرُ".

الشِّعْرُ عِنْدَهُ حُدُوسٌ، رُؤْيَا، حِوَارِيَّةٌ فَذَّةٌ بَيْنَ المُتَنَاقِضَاتِ، بَحْثٌ دَائِمٌ عَنِ "اللاَّمُسَمَّى" بِلُغَةِ (لاَوتْسُو). إِنَّهُ تَأْتَأَةُ الوُجُودِ، دَفْعٌ لِلْحَدِّ وَرَاءَ نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ. انْزِيَاحَاتٌ مُتَوَاتِرَةٌ. الكِتَابَةُ تَصِيرُ لَذَّةً وَنَشْوَةً فِي سِيَاقِ إِعَادَةِ الصِّيَاغَةِ؛ لَذَّةً لِلْكَشْفِ وَالتَّبَصُّرِ. "لَذَّةُ القُوَّةِ، وَإِرَادَةُ تَصَوُّرِ الوُجُودِ، لِيَصِلَ الشَّاعِرُ إِلَى أَنَّ "الشِّعْرَ الحَقَّ يَرَى المَأْلُوفَ بَرِيًّا، أَكْثَرَ مِمَّا يَرَى البَرِيَّ مَأْلُوفًا".

كَانَ دَائِمَ الخَشْيَةِ مِنَ الوُقُوعِ فِي العَادِيَّةِ وَالتَّكْرَارِ، وَفَضِيحَةِ التَّشَابُهِ، وَلأَنَّ لَحْظَةَ الخَلْقِ فِعْلٌ طَقْسِيٌّ مَشْمُولٌ بِسِحْرٍ مَا، كَمَا يَرَاهَا، فَقَدْ أَشَارَ، ذَاتَ مَرَّةٍ، إِلَى هَذِهِ اللَّحْظَةِ، فَقَالَ: "يُمْكِنُ لِلْفَرْدِ أَنْ يَحْلُمَ

القَصِيدَة. أذكُرُ حُلُمًا فيهِ رَأَيْتُ كِتابًا صَفَحاتهُ مِنْ نُحاسٍ مَفْتُوحَةً عَلَى المَطَرِ. قَرأتُ قَصِيدَةً "مَنقُوشَةً" فِيهِ. أنا لا أكْتُبُ القَصِيدَة؛ قُوَّةٌ مَا أعْلَى تَكْتُبُهَا لِي، أحْيانًا".

خَلْقُ القَصِيدَةِ، أوِ النَّصِّ، هُوَ فِعْلٌ شِعْرِيٌّ، وَلِي فِيهِ طُقُوسِي؛ الضَّوْءُ لَا يَجِبُ أنْ يَكُونَ قَوِيًّا، أَوْ أَبْيَض، عِنْدَمَا أكْتُبُ. "النِّيُون" تَدْمِيرٌ لِلدِّمَاغِ. ظِلَالٌ مِنْ ضَوْءِ شَمْعَةٍ إِلَى شُعَاعِ القَمَرِ. شَيْءٌ يَجْعَلُ الأَشْيَاءَ غَامِضَةً، مُوحِيَةً، أكْثَرَ مِمَّا أفْهَمُ. حِبْرٌ أَسْوَدُ، وَرَقٌ جَمِيلٌ؛ هذِهِ هِيَ بَعْضُ أدَوَاتِي الطَّقْسِيَّةِ. اللَّيْلُ هُوَ مَا أُرِيدُ. الخَلْقُ شَكْلٌ مِنْ أشْكَالِ تَنْوِيمِ النَّفْسِ مِغْنَاطِيسِيًّا. الشَّاعِرُ جَمَعَ بَيْنَ المَنْطِقِيِّ وَالسَّاحِرِ، انْقِطَاعٌ، شَيْءٌ خَارِجَ السِّيَاقِ السَّائِدِ، وَالخَلْقُ تَرَدُّدٌ بَيْنَ أنْ يَكُونَ مِرْآةً أَوْ عَرَّافًا - حَالَةً مِنَ التَّنْوِيمِ المِغْنَاطِيسِي.

أُرِيدُ "الوَاقِعَ" أنْ يَظْهَرَ كَـ"سَطْحٍ"، كَنَصٍّ، كَحُلُمٍ، بِلَا أَيَّةِ قُوَّةٍ، عَلَى أنْ يَخْدِمَ كَمَرْجِعِيَّةٍ لِلْخَيَالِ. بِكَلِمَاتٍ أُخْرَى: "الوَاقِعِيُّ" يَجِبُ تَجْرِيدُهُ مِنَ امْتِيَازَاتِهِ، مِنَ الزَّعْمِ بِأَنَّهُ ضَرُورِيٌّ، أَوْ هُوَ جَوْهَرِيٌّ".. لِيَخْلُصَ، فِي النِّهَايَةِ، إِلَى مَقُولَةِ: "لَا أَكْتُبُ المَتَاهَاتِ، بَلْ "حِكْمَةَ المَتَاهَاتِ"، وَ"كِتَابِي نَفْسِي، مِثْلَمَا قُلْتُ فِي "مَا قَالَتْهُ الغَجَرِيَّةُ": "مَن عَلَّمَكِ الرَّقْصَ؟ قَالَتْ: مَتَاهَةٌ".

*

فِي بِدَايَاتِهِ الشِّعْرِيَّةِ، فَلَّدَ التُّرَاثَ لِتَجَاوُزِ المَعْرِفَةِ المَيِّتَةِ لإِنْجَازِ كَشْفٍ، وَإِلَى إِضَاءَةٍ أَسَاسُهَا التَّحْوِيلُ. قَلَّدَ البُحُورَ الشِّعْرِيَّةَ حَتَّى بَاتَ مُتَعَصِّبًا لَهَا، وَاعْتَبَرَ "لُزُومِيَّات مَا لَا يَلْزَمُ" لِلْمَعَرِّي أُنْمُوذَجَهُ. فِي البِدَايَاتِ فَقَدَ "الحُرِّيَّةَ" وَرَبِحَ المَعْرِفَةَ، وَكَانَ هَاجِسُهُ "كَيْفَ نُوَحِّدُ المَعْرِفَةَ بِالحُرِّيَّةِ؟ تِلْكَ هِيَ المَسْأَلَةُ".

وَيَصْطَدِمُ بِالمَجْمُوعَةِ الشِّعْرِيَّةِ "عَاشِقٌ مِنْ فِلَسْطِينَ"، فَيُقْسِمُ أَنْ لَا يَكْتُبَ شِعْرًا بَعْدَهُ.. ثُمَّ يَقُومُ بِتَفْكِيكِ المَجْمُوعَةِ، فَيَبْدَأُ فِي دَوْزَانِ شِعْرِيَّتِهِ مِنْ جَدِيدٍ، وَإِعَادَةِ صِيَاغَةِ التَّجْرِبَةِ. كَانَ صَادِقًا مَعَ نَفْسِهِ وَتَجْرِبَتِهِ. رَأَى عِنْدَ مَحْمُود دَرْوِيش الجَمَالِيَّةَ الصَّافِيَةَ، فَأَرَادَ تَحْوِيلَهَا عَبْرَ إِدْخَالِ مَفْهُومَيِّ "العُنْفِ وَالقُبْحِ" السَّائِدَيْنِ فِي العَالَمِ، وَذَلِكَ لاغْتِرَابِهِ وَخُرُوجِهِ لِلدِّرَاسَةِ فِي هَنْغَارْيَا، وَبِالتَّالِي الانْفِتَاحُ عَلَى المَدِينَةِ؛ سِيَاقٌ مُخْتَلِفٌ، مَكَانٌ مُخْتَلِفٌ، وَعْيٌ مُخْتَلِفٌ، وَقِرَاءَاتٌ كَذَلِكَ، وَقَادَهُ كُلُّ ذَلِكَ إِلَى "ضَيَاعِ ذَاتٍ" وَأَزْمَةِ هُوِيَّةٍ.

اعْتَبَرَ مَحْمُود دَرْوِيش أَعْظَمَ الشُّعَرَاءِ العَرَبِ، وَفِي الكِلَاسِيكِيَّةِ انْحَازَ إِلَى المُتَنَبِّي، وَامْرِئِ القَيْسِ، وَالصَّعَالِيكِ، وَالمُعَلَّقَاتِ، وَلِبَعْضٍ مِنْ مَجْنُونِ لَيْلَى، وَاعْتَبَرَ "وَتَرِيَّاتٌ لَيْلِيَّةٌ" لِمُظَفَّرِ النَّوَّابِ، الأَرْضَ الخَرَابَ لِلْعَالَمِ العَرَبِيِّ، مُقَابِلَ "الأَرْضُ الخَرَابُ" لِلْعَالَمِ الغَرْبِيِّ لإِلْيُوت.

يَتَحَوَّلُ، بَعْدَ ذلِكَ، إِلَى "الشِّعْرِ الحُرِّ" لِيُدْرِكَ أَنَّ "الشِّعْرَ العَرَبِيَّ" لَيْسَ حُرًّا تَمَامًا، وَرَأَى أَنَّهَا سَيْرَةٌ فِي اتِّجَاهَيْنِ: "التَّفْعِيلَةُ التِي صَارَتْ مُمِلَّةً وَ"نَمَطِيَّةً" كَالبُحُورِ، وَالتَّجْرِيبِيَّةُ الفَجَّةُ. اسْتَمَرَّ فِي البَحْثِ عَنْ "حَلٍّ"؛ عَنْ حُرِيَّةٍ مَا تَخُصُّهُ، فِي حِينِ أَنَّهُ كَانَ يُدْرِكُ فُقْدَانَ المُوسِيقَى العَالِيَةِ، وَالصُّورَةِ الشِّعْرِيَّةِ المُذْهِلَةِ، وَالكَثَافَةِ التَّأَمُّلِيَّةِ، وَدَفْعِ الشِّعْرِيَّةِ إِلَى النَّثْرِ. يُضِيفُ:"إِنْ كَانَتِ "النَّثْرِيَّةُ" خِيَارَ الضُّعَفَاءِ الذِينَ لَا يُتْقِنُونَ البَحْرَ وَلَا التَّفْعِيلَةَ، فَيَدْعُونَ إِلَى خَلَاصٍ سَهْلٍ هُوَ القَصِيدَةُ النَّثْرِيَّةُ، وَغَيْرِ ذلِكَ مِنَ المَشَاكِلِ، فَإِنَّنَا "نَرْمِي الطِّفْلَ مَعَ مَاءِ الغَسِيلِ"، كَمَا يَقُولُ المَثَلُ الإِنْجِلِيزِيُّ".

لَفَتَ نَظَرَ حُسَيْنِ البَرْغُوثِي مَا أَسْمَاهُ أَدُونِيسُ "الكِتَابَةَ"؛ كِتَابَةً مُوَحَّدَةً لِلأَنْوَاعِ الأَدَبِيَّةِ، وَتَبَصَّرَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ الذِي تَجَاوَزَ العَرُوضَ، وَقَدَّمَ كِتَابَةً أُخْرَى؛ فَلَا هُوَ بِالشِّعْرِ، وَلَا هُوَ بِالنَّثْرِ؛ خَلْقٌ جَدِيدٌ، حَيْثُ وَجَدَ أَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ يُعَلِّمُنَا "خَرْقَ أُسُسِ الشِّعْرِ"، دُونَ الوُقُوعِ فِي النَّثْرِيَّةِ الفَجَّةِ. وَيُتَابِعُ: "إِنَّ المَخْرَجَ السَّلِيمَ" القُرْآنِيَّ، يَجْمَعُ بَيْنَ التُّرَاثِ وَتَثْوِيرِهِ، بَيْنَ التَّشَابُهِ مَعَ عَادَاتِ العَرَبِ الإِيقَاعِيَّةِ فِي الشِّعْرِ وَالاخْتِلَافِ عَنْهَا، وَيَصِلُ إِلَى "أَصَالَةٍ جَدِيدَةٍ".

وَمَاذَا بَعْدَ أَنِ اسْتَلْهَمَ حُسَيْنِ البَرْغُوثِي هذِهِ الأَنْسَاقَ الثَّقَافِيَّةَ المُتَدَاخِلَةَ فِي هذَا التَّجْرِيبِ؟ لَقَدْ تَوَصَّلَ إِلَى كِتَابَةِ مَجْمُوعَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ

"الرُّؤْيَا" (١٩٨٨)، وَهِيَ الأُولى التِي يَنْشُرُهَا، وَعَنهَا يَقُولُ: "تَجَنَّبْتُ تَجَاوُزَ القَانُونِ الإِيقَاعِيِّ الأَسَاسِيِّ، أَيْ تَكرَارَ (ب) أَكْثَرَ مِنْ مَرَّتَيْنِ مُتَوَالِيَتَيْنِ، وَلَعِبْتُ بِالإِيقَاعِ بِحُرِّيَّةٍ كَامِلَةٍ، دَامِجًا لَيسَ فَقَط، مُخْتَلَف التَّفعِيلاتِ، وَلكِنْ مُؤَكِّدًا عَلَى أَنَّ مَنْ يُصِرُّ عَلَى "تَقْطِيعِ" القَصَائِدِ بِطَرِيقَةِ الخَلِيلِ بنِ أَحْمَدَ الفَرَاهِيدِي، لَنْ يَستَطِيعَ العُثُورَ عَلَى المُوسِيقَى. لَقَدْ حَاوَلَ إِعَادَةَ النَّظَرِ فِي اللُّغَةِ عَبْرَ مَجْمُوعَتِهِ "الرُّؤْيَا"، وَالتِي نَجِدُ فِيهَا لُغَةً بِبُعْدَينِ، بِلاَ عُمْقٍ، وَتَسْطِيحَ المَكَانِ الذِّهْنِيِّ، وَتَسْطِيحَ العَالَمِ الدَّاخِلِيِّ.. العُمْقُ يَصِيرُ سَطْحًا.

بَعْدَ ذلِكَ، جَاءَتْ تَجْرِبَتُهُ "لَيْلَى وَتُوبَة - قَصَائِدُ مِنَ المَنْفَى إِلَى لَيْلَى الأَخِيلِيَّةِ" (١٩٩٣)، حَيْثُ قَدَّمَ تَجْرِبَةً فِي "نَحْتِ اللُّغَةِ" ذَاتِهَا. القَطْعُ الحَادُّ فِي القَوَافِي، وَجَمَعَ بَيْنَ "الصَّفَاءِ" وَ"الجَدِيدِ" وَبَيْنَ "التَّأَمُّلِيَّةِ الفَلْسَفِيَّةِ والرُّؤْيَةِ عِنْدَ (بُودلِيرْ).

عَلَى عَكسِ "الرُّؤْيَا"، جَرَّبَ حُسَيْن البَرْغُوثِي "تَحْوِيلَ التَّسْطِيحِ السَّابِقِ إِلَى تَعْمِيقٍ، أَيْ إِثْقَالِ السَّطْحِ بِتَفسِيرَاتٍ بِـ"فِكْرٍ" وَ"تَرْكِيزِهِ" وَ"تَكثِيفِهِ"، بِحَيْثُ يُصْبِحُ التَّشْبِيهُ سَطْحًا مُنَقَّطًا بِالأَسْوَدِ، نَستَطِيعُ أَنْ نَرَى عَبْرَهُ كَأَنَّهُ لَوحٌ مِنَ الزُّجَاجِ، وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ، نَضَعُ فَوْقَ هذَا الزُّجَاجِ شَبَكًا أَسْوَدَ، بِحَيْثُ نَرَى فَقَط، عَبْرَ فَتَحَاتٍ فِي السَّطْحِ، وَلَيسَ عَبْرَ السَّطْحِ كُلِّهِ".

أَمَّا مَجْمُوعَتُهُ الثَّالِثَةُ "تُوجَدُ أَلْفَاظٌ أَوْحَشُ مِنْ هذهِ" (١٩٩٨)، فَقَدْ قَالَ لِي مَرَّةً فِي (بَيْتِ الشِّعْرِ)، وَهُوَ يَمْنَحُنِي مِفْتَاحًا مِنْ أَسْرَارِهِ الشِّعْرِيَّةِ: "كُنْتُ أُجَرِّبُ أَنْ أَحْلُمَ حَرْفِيًّا مَا أَكْتُبُ". حَتَّى اسْمُ المَجْمُوعَةِ حِلْمَهُ حَرْفِيًّا، فَكَانَ يَرَى مَكْتَبَةً فِي أَغْوَارِ النَّفْسِ. تَطْفَحُ الكَلِمَاتُ، فَتَصِيرُ "الأَنَا" قَارِئَةً حَافِظَةً لِهذِهِ المَكْتَبَةِ وَلَيْسَتْ كَاتِبَةً. هذَا التَّحَوُّلُ، وَهذَا الغُمُوضُ فِي أَعْمَاقِ الرُّوحِ غَنِيٌّ بِالمَعْرِفَةِ، وَكُلُّ نَصٍّ لَا يَحْمِلُ مَعْرِفَةً، هُوَ نَصٌّ فَقِيرٌ وَتَافِهٌ. مِنْ هُنَا كَانَ يَرَى حُسَيْن البَرْغُوثِي مَسْؤُولِيَّةَ مَا يَكْتُبُهُ. إِنَّ "الحَلْمَنَةَ" إِضَافَةٌ بِاقْتِدَارٍ اجْتَرَحَهَا حُسَيْن وَتَعَمَّقَ فِي تَأَمُّلِهَا، فَفِي تَقْدِيمِهِ لِـ"رَغَبُوت" قَالَ: "رُوحُ الشَّاعِرِ قَلَمٌ تَسْتَخْدِمُهُ قُوًى أَعْلَى لِكِتَابَةِ مُذَكَّرَاتِهَا". بَيْنَ الحُلْمِ وَاليَقَظَةِ تَتَأَرْجَحُ رُوحُ الشَّاعِرِ فِي لَحْظَةِ الخَلْقِ البَاذِخَةِ، وَلِذلِكَ نَأَى عَنِ الشِّعْرِ المُرَتَّبِ الجَاهِزِ، وَانْفَتَحَ عَلَى شِعْرِيَّةٍ مَصْدَرُهَا نَبْعُ الحُلْمِ وَالغُمُوضُ الشَّفِيفُ. لُغَةٌ تَأْتِي مِنَ المُسْتَقْبَلِ، وَتَتَأَسَّسُ عَلَى نِقَاطِ الضَّوْءِ فِي شِعْرِيَّةِ المَاضِي، وَلَيْسَ عَلَى العَدَمِ.

*

"مَرَايَا سَائِلَةٌ" (٢٠٠٠)؛ المَجْمُوعَةُ الشِّعْرِيَّةُ الرَّابِعَةُ وَالأَخِيرَةُ الَّتِي أَصْدَرَهَا حُسَيْن البَرْغُوثِي قَبْلَ رَحِيلِهِ، هِيَ تَأَمُّلٌ حَدْسِيٌّ عَمِيقٌ، لَوْحَةٌ تَشْكِيلِيَّةٌ مَا عِنْدَ (بُول كِيلِي)، لِيَعْثُرَ عَلَى فِكْرَةِ أَنَّ كُلَّ مَا يُفَكَّرُ

فِيهِ وَهُوَ يَكْتُبُ القَصِيدَةَ هُوَ القَصِيدَةُ، حَيْثُ فَتَحَ الطَّرِيقَ نَحْوَ حُرِّيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

البَحْثُ لَا يَجْرِي عَنْ حُرِّيَّةٍ مَا فَقَطْ، بَلْ وَيَجْرِي بِحُرِّيَّةٍ، أَيْضًا، كَمَا يَقُولُ. مِنْ هُنَا، تَخَلَّقَ الشَّكْلُ الفَنِّيُّ لِـ"مَرَايَا سَائِلَة" مِنْ هَذِهِ الزَّاوِيَةِ. وَيُضِيفُ: "هَذِهِ الحُرِّيَّةُ فِي صِيَاغَةِ مَفَاهِيمَ جَدِيدَةٍ بَحْثًا عَنْ قَوَاعِدَ مَا أُسَمِّيهِ بِـ"الفَلْسَفَةِ"، وَهِيَ فَلْسَفَةٌ تَدْخُلُ فِي سِفْرِ تَكْوِينِ العَمَلِ الفَنِّيِّ، تَبْقَى، إِلَى حَدٍّ مَا، خَارِجَهُ".

فِي "مَرَايَا سَائِلَة"، الأَنَا تَمْلِكُ قُدْرَةً هَائِلَةً عَلَى الانمِسَاخِ وَالتَّحَوُّلِ وَالعُثُورِ عَلَى لُغَةٍ لِكُلِّ شَكْلٍ. الأَنَا لَا تَلْبَسُ قِنَاعًا، بَلْ تَصِيرُ وَتَتَحَوَّلُ. عُمْقُ التَّجْرِبَةِ هُوَ "صِدْقُ التَّحَوُّلِ فِيهَا"، وَمِنْ هُنَا يُصْبِحُ الشَّاعِرُ سَاحِرًا يُغَامِرُ فِي الكَامِنِ فِيهِ.

بَيْنَ مَقَامَاتِ أَعْلَى وَخَطِّ الهَاوِيَةِ، يَخْلُقُ الشَّاعِرُ - السَّاحِرُ نَصَّهُ بِلَذَاذَةٍ وَحُدُوسٍ غَامِضَةٍ، وَخَلْخَلَةٍ مُتَجَاوِزَةٍ؛ تَرَى فِي التَّوَتُّرِ وَطَنًا، وَاقْتِرَاحِ الجَدِيدِ إِنْجَازًا لَافِحًا.

(الفاتح من كانون أول
للعام الثامن بعد الألفين)

الرّؤيا

أنانا

أنانا يا أنانا!

أضيئي قليلاً نوافذكِ البابليَّةَ، بالشمعدانِ القديمِ أضيئيها!

فإنَّ عليهِ نقوشٌ وفي الشمعِ حفرْ،

لماذا الطقوسُ؟ أنانا!

مطرٌ وريحٌ حولَ سورٍ مغلقٍ، والبرقُ غطَّى حاجبيَّ،

أنا شيخُ هذي النواحي يا أنانا!

يا ابنتي!

يا أنانا افتحي!

وتعوي الرياحُ، الصنوبرُ يعوي معي: يا أنانا افتحي!

وأنانا يدها فوقَ شعاعِ الشمعدانِ فراشٌ تطايرَ، وهي

تخضرُّ روحي!
وتتمتمُ شيئاً، وتنسى جسدي!
يا أنانا! يا ابنتي! يا ولدي!

يا أنانا العجوزُ هنا، مثلما كانَ، حقيقياً، وتلكَ عباءتهُ فوقَ
أعلى الصنوبرِ،
كيفَ تبردُ في هذي البلادِ الصبايا!
والريحُ حولَ يديهِ ضحايا
تصلّي: يا أنانا افتحي!

قد أرفعُ السورَ بأكملهِ فوقَ نصفِ شعاعٍ من يديها،
فأعيدوها إليَّ، أعيدوني إليها!

لستُ ضبعاً يسجِّلُ ما سوفَ يحدثُ أو ما حدثْ!
لستُ ضبعاً ينبشُ بينَ قبورِ "أتيكا" عن جثثْ!
لستُ في حرب "البلبونيز" حتى أوضِّحَ نفسي، افتحي لي

يا أنانا! افتحي! يا أنانا! يا ابنتي!

أو ليسَ يكفي أن ينوحَ إلهٌ على بابها؟

وهي تطعمُ حتى الكلابَ الشريدةَ شيئاً على أعتابها،

يا أنانا، لماذا العبث؟

*

كيفَ أطفو كباخرةٍ من رصاصٍ على بحرِ الحليبْ!

هذي التجاربُ مرَّت،

وطهَّرتُ نفسي من بقايا الترابِ، ومن شهوةٍ للحبيبْ.

سوفَ أُطفئ نفسي: نيَّةً، نيَّةً،

ثمَّ أمشي فوق ماءِ العالمِ السفليِّ: فوقي النواحُ وتحتي النحيبْ.

- كيف أخبارُ مملكةِ الظلِّ؟

- هادئةٌ يا أنانا!

قدِّمي خبزاً على أسوارِ أوركَ: سوفَ آتي،

مثلَ سربِ العصافيرِ في الشمسِ، من زرقةِ السمواتِ

الآجريَّةِ
أحملُ رزقي، فإنَّ الحياةَ نصيبْ.

إنَّ مملكةَ الظلِّ هادئةٌ يا أنانا-
لم تزلْ توجدُ بين القلوب الثقة
يا أنانا!
ملكاتُ العالمِ السفليِّ يستقبلنني
وأنا- مردوك- في قاربِ البُردى،
ويبكي عليَّ شعاعٌ غريبٌ على نهرٍ غريبْ.
ملكاتُ العالمِ السفليِّ يحملنَ لي أخباركم يا أنانا!

- لم تزلْ ثقتي مطلقةْ –

يحملنَ لي خبزَكُم يا أنانا!
وفي قاربي يبكي شعاعُ المغيبِ، افتحي يا أنانا افتحي
موجةً، حتى أعودُ، فهل من مجيبْ؟

يا أنانا،

هرمتُ، وغطى النواصي المشيبُ!

وسورُ المدينةِ يغلقهُ الحرَّاسُ من دوننا

يا أنانا

افتحي موجةً لحصان الإله!

*

ربَّةُ الماعزِ الأبيضِ ترعى ماعزاً،

ربَّةُ الزبدِ البحريِّ ترعى حمامَ الشمسِ فوقَ الموجِ،

ترعى ماعزاً،

ربَّةُ الخضرةِ ترعى عشباً أو مشمشاً عاجزاً،

يا ليتني

ثوراً أبيضَ الصوفِ حتى يأكل من عشبٍ داست عليه

خطاها!

يا ليتني ثوراً تجوَّلَ قربَ نهرٍ سارَ تحتَ سماها!

يا أنانا!

يفيضُ بنا الحبُّ قربَ المروجِ، فيا ليتنا نمشي هناكَ،

وتعبدنا حينَ نخطو الوحولُ

يا أنانا،

لم يبقَ من عمرِنا إلاّ القليلُ القليلُ

يا إلهة هذي الخضرةِ الخضراءِ، هذي الينابيعِ،

هذا النرجسُ البريُّ،

هل سوفَ يحدثُ، يوماً، وتمشي إلينا الحقولُ؟

يا أنانا،

صبرتُ، وصبري نقيٌّ

وصبري عميقٌ، وصبري طويلٌ، وصبري جميلُ

فافتحي بوَّابةَ السورِ، افتحي يا أنانا! يا ابنتي!

نحنُ في بوَّابة الانتظارِ،

ونحنُ النجومُ.. ونحنُ النخيلُ.

(رام الله ٢٠/١٢/١٩٨٨)

مَوجٌ يجيءُ

من داخلِ القلبِ يجيءُ، ويأخذُ شكلَ الكلامِ البطيءْ

إنّي أُحسُّ: لعلَّها خانت،

أُحسُّ النخلَ مثلَ العصافيرِ: نحو الخيانةِ صار يميلُ،

وهذا هو الليلُ يخضرُّ تاجاً على مفرقِ الرأسِ، تاجاً يضيءُ

أحسُّ الصنوبرَ يطفحُ أو يتجلَّى...

شبيهَ غسيلِ السماءِ على أُفقٍ يشتعلْ.

أُحسُّ: ترنُّ ضحكتُها بين أجراسِ الكنائسِ،

هذا ابتعادي عنها،

إنَّني أنفَصِلْ.

أنامُ على ظهر قبّرةٍ: مثلَ نجمٍ تخمَّرَ بينَ المسافاتِ التي

ترتحلْ.

فلعلَّها خانت، أُحِسُّ،

لعلَّ المسافاتِ تزدادُ بعداً، أمدُّ يديَّ إلى نجمتين وأعجبْ:

كيفَ هنا نتَّصلْ؟

أنا النسرُ فوقَ القناطرِ: كالرغبةِ الواقفةْ.

هواءٌ يهبُّ،

أطيرُ إلى عشٍّ تعوَّدتُ فيه الحياةَ،

وفوقَ الصخورِ البيضِ يلمعُ نجمٌ وطلٌّ،

لماذا أظلُّ؟ وفي العينين يومضُ بحثٌ، ولم يبقَ من قوَّةٍ

في جناحيَّ إلاّ الأقلُّ الأقلُّ؟

بارٌ قديمٌ في الضواحي يضيءُ

أُحسُّ الصبايا يُجبِّذنَ قهقهةً من غبارٍ تراكمَ فوقَ

جناحيَّ،

أو من ألفِ ضعفٍ تسلَّلَ بينَ المخالبِ،

أشعرُ: يسخرُ من شيخوخةِ الجزءِ كلُّ.

لماذا أظلُّ وأنتظرُ؟

وأسألُ: هل تحتَ أنهاركمْ شارعٌ،

هل تحتَ شارعكمْ أنهرُ؟

هل تحتَ هذا الجفافِ الذي في الرمل، تحتَ الجفافِ الذي

في العيونِ،

وتحتَ الجفافِ الذي في الضواحي الهندسيةِ، خَلْقٌ بدائيٌّ

وسَيْلُ؟

وأسألُ:

هل في مجالِسِكمْ،

ساحاتِكمْ،

كلّ هذي المحاكمِ والأُبَّهاتُ وليس لمن تحكمونَ عليه بنفيٍ

محلُّ؟

أليسَ لمن تحكمونَ عليه بهذا العماءِ وتلكَ السجونِ قيودٌ

تليقُ بنسرٍ،

بلادٌ ترى في الخواءِ خواءً،

ولا شيءَ غيرَ الخواءِ،

أليسَ لمن تحكمونَ عليه بنفيٍ محلُّ؟

أطيرُ

إلى أينَ... لا أدري!

وأدري

"عيون المها بين الرصافةِ والجسرِ

جلبنَ الهوى..

من حيثُ أدري ولا أدري.."

جناحي لنفسي خلٌّ وفيٌّ وأهلُ

وتعوي عليَّ الريحُ، والآفاقُ تعوي عليَّ فأَطفحُ كالنهرِ

بالطينِ

والرغواتِ،

توحَّشتِ الروحُ...

وليسَ التوحُّشُ إلا جمالٌ،

وليس لهذا الجمال إلهٌ، فإنَّ التوحُّشَ فيهِ جلالٌ أَجلُّ.

وأدخُل في النَّارِ: أعماقها أنقى فأنقى،

والتطهُّر بالنَّار امتيازٌ، وليس لمن تمتازُ نارٌ بالحصولِ عليه

وجودٌ: قبله أو بعده،

وليسَ لمن يمتازُ بالنارِ ظِلٌّ.

(رام الله ٢٥/١٢/١٩٨٨)

التنبؤات

سيأتي زمانٌ عليكَ، يكونُ هواءُ البرِّ فيهِ جفافٌ يجرِّحُ سطحَ الشفاهِ، وسوفَ يكونُ القمرُ الأوَّلُ عيناً بسبعِ رموشٍ إنَّما لا ترى موتَ الإلـه، يميلُ بك السبيلُ هناك، وتعتمُ كلُّ الدروبِ، وتسألُ: هل أخطأتُ في فكِّ حروفِ الخريطةِ أو في مقاييس الخطى؟ وهناك حاول أن ترى في الجهة الأُخرى لهذي البلادِ سمعتُ بأبواب عديدةٍ، ستزيِّنُ نفسكَ بالأقحوانِ الأكثرِ إمعاناً في الحُمرة، أو تتعرَّى مغتسلاً بالقمرِ الطالعِ خلفَ الجبالِ، وتسبحُ في الماءِ الباردِ للنبعِ فتخرُج أميلَ للإيفاءِ بالوعدِ والمشيِ حيثُ انحنى بالسائرين المسارُ.

...... تلقي بثيابكَ تحتَ ضياءِ النجمِ على قنطرةٍ، ويودِّع جفنيكَ ما أحببتُ من شجرٍ، سوفَ يسألكَ النجمُ: "يا

عـاري الجسم لمـن أحببتَ مـن أحببتَ ثـمَّ تركتـهُ وحملـتَ
قلبكَ سارحاً، فلمنْ ستسكُن بعدنا هذي الديارُ؟".

قـل: بـل، يـا أيُّهـا الـشفقُ الأخـضرُ، الأحمـرُ، المترامـي في
المسافاتِ، قد خيَّرتني بين اغـترابي عنهـا وبين اغترابي فيهـا
ففارُ البلادِ، فقلتُ: يعزُّ علينا الخيارُ.

واليـومَ أخلـعُ سنِّي العـاجيَّ، أمنحـهُ للـشجيراتِ والقمـرِ
الدائريِّ وقد رفضتْ تقبيلهُ كلُّ الصبايا فأحببتُ أمشي...
ويبحثُ عن رغبةٍ في الولادة قلبـي، فـأزرعُ مثـلَ قنطـرةٍ عـلى
ظهر الندى رمشي...

لعلَّ حبيبي يسمعُ وقَع خطاي،
وسوفَ يفقدني صباحاً عندما ينهضُ الحجلُ
ويقـولُ سربٌ منـه، في وادٍ مـن العنـبِ الـذي يتعـرَّى في
الخريفِ:

"نبيّنا ذاك،
أتانـا مـن صـياغةِ مـا لا يـصاغُ، فكيـف تعـبِّرُ عـن مدلولـهِ
الجُمَلُ؟

ومثلَ العصافيرِ تغزو دربَهُ القُبلُ".

ويكونُ صمتٌ

قد رحلتُ وفي عتمةِ اللهِ أمشي، ويمشي اللهُ في عتماتي،

وبعدَ قليلٍ سأبزغُ من نجمَةٍ لا تراها بعدُ هذي البلادُ،

وبين يديَّ مصيري، ضوءٌ

من الوجهِ يطفحُ، لكن لا يرى الضوءَ مَنْ كانَ يسقطُ بيني

وبينَ عينيهِ الخمارُ.

ويقولُ: ما هذا؟ أجيبُ: بين الله والفانينَ ينسدلُ الستارُ.

(رام الله ١٣/١/١٩٨٨)

.... وردَّتْ شعرَها للخلفِ،

كان الشتاءُ يهزُّ ضاحيةَ الصنوبَرِ قربَ المساءِ، وقالت:

"أُحسُّ بخوفٍ منكَ، لا تنظرْ إلى جهتي"...

تمتمتْ شيئاً... "ومرَّ والعمرُ مثلَ النهرِ، أعني قد خسرتُ

الموجَ كلَّـهْ... مثلكَ يرجعني للغابةِ الأُخرى وأشياءٍ

مَضَتْ".

"فيكَ الشجرُ المغسولُ بالشمسِ بعد الصَّحْوِ، أقصدُ أنَّ

أَعاليكَ أَطولُ من أن تُطالَ بكفٍّ عَجوزْ...."، وردَّت

شعرها للخلفِ وارتجفتْ من ومضةِ البرقِ في جهةٍ لا أراها

قلتُ: ماذا الآن يجتاحُ سماها؟

كانَ الشتاءُ يهزُّ ضاحية الصنوبرِ، كان قلبي مثلَ عصفورٍ

تنقَّلَ بين غُصنٍ يميلُ ويخضرُّ وبين غصنٍ تعرَّى.

"لستُ فضاءً حتى تتمدَّدَ فيه، هناكَ فضاءٌ في الجهة الأُخرى... جهاتي مغلقةٌ".

ومضتْ ملتفَّةً بالليلِ تحتَ الصنوبر. أشعلتُ سيجارةً وبحثتُ عن أُخرى.

*

أنتِ،

يا من تعرفُ كيفَ ترمي ضحكَتَها للشمسِ في الصباحِ

إنَّكِ تحزنيني،

ويسيلُ عليَّ حُزنكِ، حصرتُ كالنَّحاتِ، مع كلِّ نقشةٍ فيكِ

وضعتُ دمعةْ.

وفي كلِّ خطوةٍ نحوك – حتى أمنحكِ التمثالَ – وضعتُ إرادةْ.

جئتكِ بالفرحِ الشاملِ والحزنِ المطلقْ،

فاقبليني كما أنا:

قطيع نمورٍ يتضوَّرُ جوعاً ويبحثُ عنكِ.

*

موعدُ الرقص يأتي...

فقلبي منذ قرنينِ يرعى الخيلَ منفرداً في شمالِ المراعي،

ومنعزلاً،

منذُ قرنين،

ملابسُهُ مغسولةٌ باخضرارِ الحقولِ، وقلبي يأتي.

حمائمُ بيضاءُ غطَّت سقفَ بيتي

وحبيبتي منذُ قرنين قد غادرتني لترجعَ بين الحمائـمِ في لحظةٍ

من ذهولْ.

لو كانَ هذا البحرُ باباً لكنتُ إلهاً يردِّد للبحرِ: لا!

أنتَ أضيقُ من كتفيَّ وأقصرُ من أن أستطيعَ الدخولْ.

إنَّني خلفَ النجومِ السماءِ التي لا تُسمَّى.

(رام الله ١١-١٣/١/١٩٨٨)

الرحلة إلى داخل الأرض

مشيتُ إلى غابةٍ مغسولةٍ بالصَّحْوِ بعد المطرْ،

"هذا وضوحٌ"، قلتُ لموجاتِ شمسِ الصباحِ، مياهٌ تسيلُ وتصخبُ بين الحصى، قلتُ:

"ربُّ المياهِ يثرثرُ أم روحيَ الآن في الماءِ تسري؟".

وانحنيتُ على قطرةٍ تتأمَّل أينَ ستسقطُ، مثلي، انحنيتُ لأسكنَ في اللبِّ: تلتفُّ حولي المسالكُ شائكةَ الاخضرارِ، متاهاتُ غابٍ بأكملها تلتفُّ حولي، كلُّ الذي يلتفُّ حولي قشري.

تجمَّعتُ في لبِّ بلُّوطةٍ مثلَ قطرةِ ماءٍ تزيد صفاءً، ويعبرُها من شعاعِ النجومِ الذي في القلبِ شيءٌ، وكلُّ شعاعٍ يشقُّ إلى نصفينِ هذا الصفاءُ يشكِّلُ قطري.

ويسرحُ قطريَ فيَّ ذهاباً، ويسرحُ قطريَ فيَّ إياباً، وأصفو...
نازلاً نحوَ الجذورِ التي خبَّأتْ سرَّها في الأرضِ، حيثُ
الربُّ يدفنُ ضوءَ الشموعِ وضوئي، قلتُ: في عَصَبِ الله،
مثلَ اخضرارٍ يعيدُ الحياة إلى السهلِ بعدَ الحصادِ، سأسري.
وصلتُ إلى عتمةٍ في الترابِ، وكنتُ الأشدَّ ابتعاداً عن خطى
أُنثى تزيد جمالاً وقد كَشَفتْ للغابِ والشمسِ من حَلَماتِها
كشفاً، وكنتُ الأشدُّ ابتعاداً عن طيورٍ تفيقُ على العشِّ
مغمورةً بالذهولِ، وكنتُ أزيدُ ابتعاداً عن الصحوِ، إنَّ
الغموضَ الذي في النَّار لمَّا تُطاوِلُ ليلتَها بالرقصِ بعضُ
خطاي، ولكنَّ الطريقَ إلى داخلِ الأرضِ مفترسةْ.

كنتُ الأميرَ الذي غادر الاحتفالَ بيومِ النصرِ بين خيامِ
العساكرِ ليلاً، وخلَّى النارَ والخمرةَ والجُنْدَ، وقالَ: "نحوَ
جهاتِ البراري أَروحُ"، ويتركُ ضمَّةً من شَعرِهِ لأبيهِ
العجوزِ، ليبحثَ عن إمارةٍ مندرسةْ.

كنتُ فرعونَ الذي يرمي عروسَ النيل للنيلِ عند الغروبِ،
وكنتُ العبيدَ بروما

عندما قُذِفوا للأسودِ المفترسةْ.

كنتُ اتهامَ الدماءِ لسهمٍ زجاجيٍّ يختفي داخلَ قلبِ الغزالِ الأخيرْ.

كنتُ المسافةَ بين خُطى دودةِ القزِّ تحتَ شعاعٍ من قمرِ التوتِ، وبينَ اكتمالِ الحريرْ.

كنت السجونَ التي انفتحت، كلُّ سجينٍ يتمتمُ شيئاً تحتَ ضياءِ القمرْ

يوشوشُ قبَّرةً حرَّةً في ازرقاقِ المساء،

ينادي عليها،

وينسى حَرَسهْ!

كنتُ المسافَةَ بين سقوط المطرْ

وانبعاثِ الزهورْ

على تلّةٍ تخضرُّ تحتَ قوسِ قزحْ.

سوفَ أخرجُ من داخل الأرضِ في الليلِ:

كفّاً رخاميَّةً تحملُ القمرَ الجديدَ قدحْ.

فاغتسلوا في النهورْ

وانتظروا لحظتي.

سوفَ أخرجُ من داخلِ الأرضِ في الليلِ

كفّاً رخاميّةً ممسكةً بعنان الفرسْ،

فرس الملائكةْ،

وستصهلُ في جهةٍ حرَّة َمن براري البلاد، فيُبْعثُ كلُّ مَنْ في

البلادِ

هوى قتيلاً بالرصاصِ،

وتهتزُّ النجومُ كأنَّها شَبَكةٌ.

فانتظروا جهتي.

وسأخرج من داخلِ الليلِ

قَبْضةً من ترابٍ، فازرعوا في ترابي أصابعَكُمْ

غابةَ أقمارٍ سترمي البلاد إلى الضوءِ

فانتظروا تربتي

واحذروا الانتظارْ

والأزمنةَ الحالكةْ.

(رام الله ١٥/ ١/ ١٩٨٨)

التحولات

صياغةَ أُخرى قصدتُ،

عنيتُ غيرَ صياغتي الأُولى، وغيرَ صياغتي الأُخرى،

وما سأصيغُ،

غيرَ العشبِ، غَير الأرضِ، غيرَ القبلة الأُولى،

وغيرَ القبلة الأُخرى،

وما كنتُ استسغتُ وما أستسيغُ،

وغيرَ هذا النَّفَس المألوف، غير الشِّعْرِ والشعراءِ،

وما يلفظهُ في رعشةِ الوحي هذا النبيُّ البليغُ،

عنيتُ غَيرَ الضفةِ الأُولى، وغيرَ الضفة الأُخرى،

وغيرَ الذي يتفلسفُ والفلسفات،

وغيرَ الخطوة الأُولى،

وغيرَ الخطوة الأُخرى.

أُسمِّيه: التحوّل،

سَمِّهِ ما شئتَ، أو كيف اشتهيتَ،

هو الخروجُ عن الذي سمَّيتَ،

وهو الاشتهاءُ لغيرِ ما كنتَ اشتهيتَ،

فسمِّه الرقصَ النقيضَ،

صياغةً أُخرى عنيتُ،

فسمِّهِ حلماً، شعاعاً غامضاً كالأخضرِ الممزوجِ بالدّمِ،

سمِّه!

فأنا عنيتُ أشعةً أُخرى،

وشيئاً غيرَ ما عبَّرتُ عنه (فما أُعبِّرُ عنه صيفٌ لا تحيضُ إناثنا

في حَرِّهِ، طيرٌ عقيمٌ لا يبيضُ، هو اشتدادُ الانقراضِ هنا...).

قصدتُ ملذَّةً من غيرِ هذا النوعِ،

شيئاً لا يُحدُّ وليسَ تفهمهُ الحدودُ،

يكونُ خارجَ ما أصيغُ،

قصدتُ دهشةَ غابةٍ طارت إلى نجمٍ على ليلٍ يطيرُ،

فهل فهمتَ عليَّ من لغةٍ يطاردها البعوضُ؟...

تجاربَ أعلى عنيتُ،

عنيتُ غير الاعتراف بلحظة ضعف،

غير تنازلات الروح كي ترضى بنصف،

هذا ليسَ من ذوقي عنيتُ،

"بغير هذا جئت"،

يا روحي عدمتكِ!... غيِّري

هذا المساءَ برحلةٍ بين البراري فوقَ

خطوةِ مهرةٍ زرقاءَ تسبحُ تحتَ سرجٍ من كواكبَ،

غيِّري

جهةَ الصهيلِ ليزحفَ الشجرُ الصغيرُ إلى طريقٍ غيرَ هذا.

تنتهي الطرقاتُ بين يديَّ يا روحي،

تعالي للبراري

حيثُ يحيا الحرُّ مثلُ الله.

حتماً ما أضنتُ، وذاك شوكٌ ما أراهُ، إذن، تعالي

خارجَ المألوفِ نحو صياغةٍ أُخرى...

نمرُّ بقرب أنهارٍ تفيضُ، أقولُ:

يا روحي جميلٌ ما أحنُّ إليهِ،

أقصدُ أنهراً من غيرِ مجرى...

لستُ أدري كيفَ؟ أو من أينَ؟.. لكن... ربُّ هذا البرِّ

أدرى.

إنَّ ماءً، غيرَ هذا الماءِ،

يُحيي من يحنُّ إليه، يدعوني لآخذ نطفةً أُخرى.

عدمتكِ، فلنسرْ

لا وقتَ عندي كي أُفسِّر ما أحنُّ إليه،

عتمٌ ما يضيءُ، إشارتان بلا تفاصيل،

"وقد لاقى الهزبر أخاك بِشْراً"

ثمَّ أضحكُ: كيفَ تضحكُ مرتين عليَّ روحيَ

ثمَّ تضحكُ مرَّةً أُخرى!

جميلٌ أن نحبَّ الآن، أن تتصارحَ الأشياءُ،

نحنُ فراشتانِ على سراجٍ تحتَ ليلٍ في العراءِ،

لعلَّنا أسرى لديه،

لعلَّنا أسرى.

ندوب ملذَّةً، اسماً وجسما

عدمتكِ روحي،

تقولين لي: "ما نحنُ في كلِّ قريةٍ؟ وما نبتغي؟

ما نبتغي جلَّ أن يُسمَّى".

طليقان مثلَ النسور، سحيقانِ مثلَ العصورِ،

أنا المتفرِّدُ بالوحشِ والوحشُ،

ألمسُ فيكَ مداراً من مداراتِ النساءِ،

فأيَّة حواءَ ألمسها لمستين ولا تشتهي لمسةً أُخرى؟

*

أفيقُ على برجٍ رماديٍّ

شبابيكه لا تُعدُّ،

ومرصوفةٌ بزجاجٍ كالحصى الأزرقِ،

مفتوحةٌ لسماءٍ غضَّةِ الازرقاق،

وتبحثُ عن سربٍ من الحجلِ المبتعدْ.

برجٌ إليه تقودني طرقٌ حمراء،

مثلَ أشعةٍ مكسورة بزوايا مستحيلةْ

وجمالٍ مستطيلٍ، وهندسةٍ مستطيلةْ

طرقٌ ثقيلةْ،

تلتوي في حدَّةٍ،

كلُّ شيء هندسيٌّ هنا:

كيفَ يشعرُ مهرٌ شرودٌ يؤدِّي عليها صهيلَهْ؟

وفي آخر الهندساتِ بحيرةُ ضوءٍ تسيلُ على مدخل البرجِ،

تشبه دائرةً؛

ربَّما مرسومةً رسماً هناك، وربَّما كانت أصيلةْ.

ويفيضُ بئرُ الليلِ في صدري،

وتصعدُ منه سنبلةٌ لا قمحَ فيها،

فظَّةٌ،

تحملُ بين أصابعها قمراً أميَلُ للاحمرارِ،

وقلبي غزالٌ شاردُ الذهنِ: كيفَ أحاولُ إضحاكَه فأزيدُ

ذهولَهْ؟!

من يفسِّر لي هذي الرؤى؛

مدخلي للأراضي الجميلة؟

روحي عدمتكِ، إنني

أعجزُ عن أن أُغنِّي الذي في اللحن،

هاتِي جناحيكِ كي نتوارى

طائرينِ على شفقٍ،

تمتدُّ حولي المسافاتُ: ورديةٌ، خضراءُ، حمراءُ،

في حلم يتوارى

فأهبطُ،

أعلو،

تحرِّكني طاقةٌ، دقَّةُ طبلٍ منفردٍ أفريقيٍّ،

خصرُ زنجيةٍ يرقصُ من قبلةٍ من جنوني، لكن...

ليسَ لي في مثلِ هذا التأجُّج فضلُ.

وماذا فيك؟ حتى أشتهي أن أكونَ بلاداً تنامُ بكفَّيكِ أو تُستحلُّ؟

لغاتٌ تبادُ،

وروحٌ من الشجر البريِّ والبلوطِ تسكنني

وصوتكِ، والثلجُ أزرقُ، يسكنني

مرِّي مروراً فوق سطحِ البيتِ،

هل أنتِ موجودةٌ؟ هل لكِ وجهٌ؟

هل لوهمي عنكِ أساسٌ وقد ضاع عمري خلفكِ؟

يسألُ هذا حبيبٌ قديمٌ،

ويخشعُ في بابِ ذاكراكِ كهلُ.

حيثُ خطوتُ تنفتح المعتقلاتُ

وحيثُ حدوتُ قافلةُ الحجلِ البريِّ تحطُّ فوقَ حقولِ

الزنابقِ تحتَ الغروبِ،

ولما سقطتُ أتى شجرٌ لا يُعدُّ ليبحثَ عن أميرٍ للحقول

انتُخِبتُ.

وحيثُ شربتُ أفاعي النهرِ في الروحِ تسري، فمن أيِّ ماءٍ

شربتُ؟

وأيَّةُ نرجسةٍ لمستْ شفتيَّ؟ وهذا غروبٌ أم إناءُ؟

بينَ الحدودِ اللانهايات فاضت عليَّ،

وتمنعني عن قبلةٍ للترابِ السماءُ؟

زحفتُ إلى بوَّابتينِ لسجنينِ

البوَّابتان كفخذينِ جميلينِ تحتَ القمرِ الفضيِّ ينفتحان،
دخلتُ، مثل قطيع نمورٍ دخلتُ:
"إذا قمت عنَّاني الحديدُ وأُغلقتْ

مصاريعُ من دوني تصمُّ المناديا"

ويبزغُ في عتمةِ القلعةِ نجمٌ أخضرُ الإشعاعِ يغسلني بفيضٍ
منه حينَ صحوتُ،
وفي أنهرِ الانحناءِ استقمتُ.
شعرتُ بشوكٍ يهتزُّ من وشوشةِ الريحِ على شفقٍ
في أفقٍ تطاولَ مثلَ أعناقِ الزرافاتِ،
بنجارِ التوابيتِ وهو يفصِّلها بالخروجِ على مقاساتِ
الحدائقِ،
أو بالشمس على جنحِ حمامةِ نوحٍ بعد الفيضانِ ترفرفُ فوقَ
الغَمْرِ،
يا روحي عدمتكِ، هذه لغتي وقد عجزتْ...
هذي هي اللغة العجوزُ، وهذه شفتي!
وصياغةَ أُخرى عنيتُ، فعدتُ للسأم المتوارثِ في قافيتي!

واللحظاتُ فراشاتٌ حول سراجي، ما عدتُ أحسُّ
بعشقك يا غاليتي!

*

تأتي العصافير وتنقرُ شيئاً من وتَرِي.
وَتَرِي حديدٌ، أو رصاصٌ، ليسَ قمحاً في البلادِ، وليس في
بركةِ الازرقاقِ التي سُمِّيت بسمائي شيءٌ من سمكي أو
شجري.
تحتلُّني خطوت أُخرى،
وأنا اتساع الاحتلالِ،
وتأتي العصافيرُ، أعرفُ، ليستْ حافيةً مثلي، أعرفُ، ليستْ
قادمةً من أجلي، أو ليست بالأرحى خطوات عصافيري،
أمنحُ مملكتي للخرابِ، ومنزلتي للطوفانِ، وللأعشابِ
البرِّيةِ أمنح كفَّيَّ الحجريَّيْنْ.

*

صوت–

عباءتكِ الخضراءُ ترفرفُ تحتَ هواءِ النجوم، وتتَّسعُ

البراري في خطاكَ، وصوت حصىً ينزاحُ من العزلةِ، قلبُكَ،

خريطةَ الأنهارِ عنيتُ، كلؤلؤةٍ زرقاءَ تشعُّ عليَّ، توقَّفْ!....

يا سيِّدُ هذا الضوءِ، توقّفْ!...

وامنحني الفرصةَ، يا سيِّدُ هذا الضوءِ، لماذا تتبسَّم؟...

أسنانكُ خضراءُ كأنَّك ترعى العشبَ، فدع حَلماتيَ،

دعني!..

أنتَ، يا مجنونيَ المتراميَ الأطرافِ، تغيَّبتَ طويلاً، وترغبُ

في فضِّ عذريتَها الآن ليلى!...

صوت–

"تعشَّقتُ ليلى وهي غرٌّ صغيرةٌ

ولم يبدُ للأترابِ من نهدِها حجمُ

صغيرينِ نرعى العشبَ يا ليتَ أنَّنا

إلى اليوم لم نكبرْ ولم تكبر البهمُ"

صوت–

يا قيس أضئني:

نتجمَّد مثلَ وعولِ القطبِ، ونفركُ حافرنا في الجليدِ،

ولا دفءَ

لا نارَ في الحافرِ الفظِّ، يا قيسُ هل تدري لماذا؟...

يبردُ في أعيننا ما ننجزُ، ثمَّ نَحِنُّ إلى برِّ الحبِّ ونعجزُ، نحملُ

نَحو إلهِ الطرقِ المنسيةِ ما نخبزُ،

لكنَّ الطيورَ تعافُ مياهي وخبزي وتمري،

أبوحُ بكلِّ مَذلاّت عمري.

أضئني: ولو كسراجِ زيتٍ في قبورِ الأولياءِ، ودعني. لا

أبحثُ عن حبٍّ في زمنِ الندرةْ.

مَنْ يبحثُ عن شجرٍ في البذرةْ؟

عشبٌ ينبتُ بينَ عظامِ الكفينِ إذا متُّ، وباقةُ نرجسٍ،

أو أفعى،

من بينِ ترابٍ في الصدرِ تطلُّ إذا متُّ،

تعالَ إلى كفيَّ،

فليلى ترغبُ في فضِّ بكارتها بعدَ جنونكِ،

سوفَ أعيدكَ طيناً،

وأصيغُ جنونَك لحماً يتوحَّش حتى يدخلَ بابَ النزواتِ

الكبرى...

أرى روحاً بلا جسدٍ، وأجساداً بلا روح،

فأينَ سنرقصُ الرقصَ النقيضَ، ووحدةَ الأعشابِ

والأمواهِ والمجرى؟

خارطةُ الأنهارِ على طاولتي،

وقناديلي تقتلُ عينيَّ، وأبحثُ عن مكتشفينَ لهذي

العتمةِ، يا قيس أضئني؛

قنديلين على حجرٍ،

وأرحلُ أنَّى شئتَ، لعلَّك أدرى

بالخصبِ الروحيِّ،

لعلَّك أدرى!

يا قيسُ، قد أحببتُ، قبلكَ، ليلى الأُخرى

ومنحتها لشواطئِ النسيان والذكرى:

يا قيسُ عاليةٌ ناطحاتُ السماءِ ومن زجاجٍ أسودَ، مثلَ
بحيراتٍ ساكنةٍ في الشمسِ
مُسوَّرةٍ بحَمامٍ و قصبْ
يا قيسُ عاليةٌ ناطحاتُ السماءِ هناكَ، ومنها
ترى ليلى و"إلزا" تحاولان منا الهربْ.
بركٌ زرقاءُ مثلَ مياهِ السماءِ، وأسماكٌ تسبحُ في اللونِ وبطٌّ،
وإناث يتعرَّينَ،
وفوقَ كراسي الشمسِ يجلسُ بعضُ شيوخِ العربْ.
وهناكَ الإغراءُ، ونحنُ بلا إغراءٍ،
وهناكَ نساءٌ، نحنُ بغيرِ نساءٍ،
وهناكَ شموعٌ في الباراتِ، فتلبسُ وجهاً وتقلعُ وجهاً،
وتسمعُ جازاً، وتهجُر جازاً،
نحنُ نغارُ ويوجعنا شيءٌ، أقصدُ، والغيرةُ ليست مُلْكاً
فنحاوله،
أو نبذلهُ في قصرِ "عُطيل"،
فأينَ ليلى ولبنى؟ وأيَّةُ أوهامٍ أُخرى تعزُّ علينا؟

فأضئني في تلكَ العتمةِ قنديلينِ على شجرٍ،

واتركني أغفو لحنينٍ على وترٍ،

وانثرني بين متاهاتِ الوديانِ نَبيَّينِ بلا قدرٍ،

يا مصدرَ هذا الضوءِ الأعمى!

روحي لا تقرأُ، لا تكتُب، روحي وشمٌ بالإبر الصينيةِ

والأخضرِ فوقَ شفاهٍ من رملٍ،

من يمنعني أتدلَّى كالبلّوطِ؟ أبقىَّ كالنبعِ المقمرِ؟ أفعلُ ما شئتُ؟

ويلبسني مثلَ خواتمِ فضَّةٍ محيتْ كتابتها؟

وأكركرُ في حضن أبي

حتى يُنشد لي: "سجِّل أنا عربي!"

لا أجوبة.

تتعجَّب روحي: من يدبغُ دبغاً بالملحِ،

ويصنعُ أحذيةً من جلدِ غزالٍ يختفي في بلادِ الدباغةْ؟

حبيبي، كيف أعيدُ الصياغةْ؟

*

تحتَ ضياءِ نجمتينِ على تلَّتين من اللذَّاتِ،

كالحلماتِ ارتفعتْ لغتي نحوَ فمي،

ولسانٌ وحشٌ يتلمَّظ فيَّ... أعيدُ الصياغةْ:

لغتي نارٌ في كأسٍ معلَّقَةٍ في فضاءٍ معتمٍ،

بعضُ مرايا الله تلكَ،

أنا أسبحُ في اللون الأزرقْ

في اللونِ الأزرقِ أسبحُ: قلعةَ زنبقْ

تلكمُ نصفُ لغاتِ المطلقْ.

لَمَّا أفتح شبَّاكي،

يتدفَّق نهرُ الليلِ ويحملني

كالقارب،

والليل نهرُ.

عبرتُ على أنقاض نفسيَ حتى ولو

كان يسحبُ رجليَّ في الأحلام قبرُ.

أنا متحفُ من ماتَ وما ماتَ وما سيموتْ

وساعدي خيطٌ على التابوتْ

لا أدَّعي فرحاً،

لا أستقبل من يفرحُ،

هذا المتحفُ حوتْ.

يا قمرَ التوت

يا كاهنَ أهرامِ الجيزةِ ماتتْ أُغنيتي

فكتاب الموتى مخطوطٌ تحتَ ضياءِ الشمع، تسيلُ حروفٌ

بالهيروغليفية منه،

وتغلقُ بالشمعِ الأحمرِ بابَ فمي ومتاحِفَ ذاكرتي.

فأنا مرآةٌ هشَّمها الفرعونُ ليبصرَ عشرة آلافِ سماءٍ زرقاءَ لهُ

الملكوتْ.

وأعيدُ الصيغةْ:

تحتَ ضياءِ النجمِ تعرَّيتُ تماماً،

مثلَ عروسِ النيلِ،

طيورُ الحجلِ البريِّ تحطُّ على كتفيَّ وتنقرُ شيئاً من شفتي.

*

أنتَ،

يا مجنون "إلزا"،

ترجعُ "إلزا" أو لا ترجعُ؟ مَنْ يدري

ماذا نفقدُ بالضبط، وماذا يرجعُ؟...

تسكنُ في الروحِ سيِّدةٌ غائبةْ!

نحنُ أفاعٍ

تعيشُ على الأتربةْ

من يدري ماذا يوجعُ؛

حبٌّ نقضيهِ بلا ضُمَّة وردٍ،

ضمَّةِ وردٍ في الحضنِ بلا حبٍّ، فقدانهنَّ؟

أم أنَّه لا بديلَ لهنَّ هنا؟

أم كوننا نحيا على عُشُبٍ ماتَ في الذاكرةْ؟

كالقمرِ الأحمرِ تصعدُ فوقَ جبالِ الروح حبيبتُنا،

السيِّدة الغائبةْ،

ثمَّ يجرحنا الغيابُ.

"هل في العيونِ التونسية شاطئٌ

ترتاحُ فوقَ رمالهِ الأعصابُ؟"

حبيبيَ،
كيف أُعيدُ الصياغةْ؟

*

صحراءٌ من أهراماتٍ حمراءَ،
تحتَ غروبٍ منفردٍ هرمٌ كانَ بحجمِ الكفَّينِ،
وآخرُ كان يطاولني.
أتنقَّل كالظلِّ: عروسُ النيل تلوحُ هنا
وتلوحُ هناك،
بثوبِ النومِ الأحمرِ تدعوني.
وفركتُ جفوني
وصلتْ بي لمقابرَ مثلَ الكتلِ الحجريةِ تحتَ القمرِ الموحشِ،
نقشٌ بالهيروغليفيةِ، نقشٌ بالعربيةِ،
نقشٌ بلغاتٍ أجهلها، صلبانٌ وأَهِلَّةْ!
ماذا يفعلُ نحّاتٌ مثلي، يشعرُ أنَّ حروفَ اللغةِ المجهولةِ
أَهْلَهْ؟
مثلَ حصانٍ،

أتوقَّفُ في فسحاتٍ خاليةٍ في وسط الكتلةْ؛

أقواسٌ خضراءُ عليها قنديلانِ من الوردِ، فأصهلُ

كفٌّ لا أبصرها ترمي بالزنبقِ نحوي،

تضربني بين العينين بفلَّهْ.

أصهلُ: إنَّ عروسَ النيلِ تلوحُ وراءَ الساحاتِ الخضراءِ،

فأركضُ،

إنَّ عروسَ النيلِ تغنِّي:

(ومنحتك للبحرِ الواسع، في جزرِ النخلِ تكون ضباباً

يسكنُ فوقَ نمورٍ تمشي

نحو غناءٍ لا يسمعهُ أحدٌ.

قلبكَ تسكنهُ الثيرانٌ، ولونكَ بين الغزلان،

ومِنكَ إناثُ النورسِ سوفَ تفرُّ إلى أعلى الموجِ المتعكِّر،

سوفَ يكون نصيبكَ من عمرك نخلةْ.

وكلامكَ خيطُ حريرٍ تتركهُ فوقَ أعالي الشوكِ يميلُ،

وتخطفُ صوتَكَ بعضُ طيورٍ جارحةٍ، تخطفُ صوتك كلَّهْ.

وتحاول في هذا الشاطئ مُلْكاً، فتعدُّ النخلَ، ويهربُ منكَ

العدُّ والعددُ.

وتخاصمُ هذا الشاطئَ

نحوَ نخيلٍ يتمايلُ، سوف تميلُ ليحكمَ بالعدلِ

هناكَ عليكَ

تطاردُ سربينِ من النخلِ،

فيكثُرُ في أوهامك العددُ،

ومنحتكَ للبحرِ الواسع، في رائحةِ الملحِ تسافرُ كالوردةِ، من

بينِ البحارةِ أنت الأخشنُ والأطرى

ليس لبحركَ رائحةٌ أُخرى

ليس لبحركَ إلا أنتَ، منحتكَ بحركَ يا ولدي).

*

عند افتراق الجدول البريِّ عن مرجِ الحديدِ، لها اللهُ، ودَّعتها.

وكان الغروب يسيلُ فراشاتٍ على جانبيِّ الطريقِ،

وكانت حقولٌ من النرجسِ الغضِّ تُسحقُ تحتَ خطايَ،

لها اللهُ،

فألقيتُ حصىً أخضرَ في النهرِ ودمعةْ

وأصابعها في غايةِ البطءِ تمتدُّ نحويَ،

مثلَ شعاعِ غروبٍ يعبرُ في شعريَ ظلَّ أُصابعها

وكانت يداها تفوحُ ورائي برائحةِ العطرِ حتى لا أفارقها.

"قد نلتقي!"، قلتُ لها،

"قد نلتقي!"، قلتُ لها،

قبل أن تختفي في الجهة الأُخرى لقوسِ قزحْ...

وبعثتُ حماماً زاجلاً نحوها، فلها اللهُ،

قالتْ: "تموتُ إذا ما رجعتَ، فإنَّ سربَ وعولٍ أزرقَ

العينين يغتالونهُ قربَ الغروب،

لهُ اللهُ،

وإنَّ سجونَ الوطنِ المحتلِّ لجيلٍ من الوردِ تتَّسعُ الآنَ،

لجيلينِ من الوردِ

تتَّسعُ الآن، عنيتُ لكم ولنا سوف تتَّسعُ الآن، "حبيبي"،

قالتْ، "حبيبي"، قالتْ، "تموتُ، تموت حبيبي"، قالت،

"حبيبي"، قالت، "تموت تموت حبيبي"، قلت: أنا؟

"أنا أنتِ وأنتِ أنا،

وكلُّ يدٍ تفرِّق بيننا مليونُ مجنونة".

*

ووصلتُ إلى برٍّ من شجرٍ شكوكيٍّ،

في دائرتينِ من الضوءِ الأخضرِ صلَّيتُ، وكنتُ كتمثال

زجاجٍ؛ من كلِّ جهاتِ

الأرض تشعُّ الإشعاعاتُ الخضراءُ لكي تتقاطعَ في

منتصفي.

وطيورٌ نائمةٌ تستيقظُ بين الشوكِ، فتلكَ قبرَّةٌ تنظرُ في عينيَّ،

فقلتُ لها:

لا داخلَ فيَّ، ولا عمقَ، إلى أين أمشي؟

فأجابتْ أوَّلُ قبرةٍ: أنتَ فضاءٌ كاملٌ، فيه جهاتٌ نائيةٌ،

لا تلقِ لغيركَ بعضَ سمائكَ، أنتَ ابتداءُ الوفاءِ لبرٍّ لا يفي.

قلتُ:

يا قبَّرات البراري، إليك أجودُ الآن بالعلفِ.

فاحتلَّتْ قلبي قبَّرةٌ تبحثُ عن عشٍّ من ضوءٍ يخضرُّ لها.

قلت: إلى أين أمشي؟

في طبرية بعضُ أسودٍ، قلتُ، وقد أتناولُ نصفَ عشاءٍ معها.

*

يا أيُّها القمرُ الدائريُّ، الهندسيُّ، الأحمرُ

هذي الجبالُ حروفي،

وهذا الموجُ قلبي،

ماذا يهمُّ إذا جفَّتِ الحيتان في البحرِ القديمِ، وجفَّتِ فوقها الأبحرُ؟

يا أيُّها القمرُ الهندسيُّ الأحمرُ جئتُ من أرضٍ محتلَّةٍ

من مدنٍ ألفِ مغلقةٍ، والكتاباتُ فوقَ الرصيفِ لجيلٍ من الوردِ،

يخرج سرَّاً،

ويكتبُ بالدمِّ ما يشعرُ.

جئتُ من أرضٍ ممنوعةْ

أبحثُ عن أرضٍ بكرٍ في ضوء القمر الآخرِ

عن أُنثى تخرجُ من زبدِ البحرِ الآخرِ،

عن أشياءَ أُخرى، هذا ما أقصدُ،

جئتُ بغيرِ دليل وأدلَّةْ.

هذه ريشتي، هل فهمتْ؟

"كلَّما قالوا انتهى فاجأتهم أنّي بدأتْ".

*

في لغتي سربُ قلاعٍ صامتةٍ تبعثُ ضوءَ شموعٍ نحويَ،

خلفَ قلاعٍ صامتةٍ تبعثُ ضوءَ شموعٍ نحويَ،

يشبهُ أسلاكاً شائكةً، داخلَ أسلاكٍ شائكةٍ، داخلَ أسلاكٍ

شائكةٍ، داخل أسلاكٍ شائكةٍ، وتحيطُ بحرفينِ،

وقلبي سجنٌ داخلَ سجنٍ داخلَ سجنٍ داخلَ سجنٍ،

سربُ سجونٍ مغلقةٍ بالشفتينِ،

فلا تلفظُ في المنطقةِ المحتلَّةِ غيرَ اللفظاتِ المحتلةْ.

وقيودي تحضرُ بالجملة:

فأحلّقُ، سرباً من حجلٍ بريٍّ تحتَ نجومٍ تتشابكُ، لستُ

أُغنّي صوتاً منفرداً في أجنحتي،

سأغنّي كلَّ جناحي، كلَّ جناحي، كلَّ جناحي، لستُ أحرّرُ

نصف فضائيَ،

ربعَ فضائيَ، ثلثَ فضائي، سوف أحرّره كلَّهْ.

كلّهْ.

هل تفهمني؟ كلَّه!

وأُعيدُ عليكَ لتفهم: كلَّ جناحي، كلَّ فضائي، كلَّه.

نحنُ أمام الروحِ المحتلَّة وهي تحلِّق كالرخِّ،

لها اللفظة في أوَّلِ الموج.

(رام الله - القدس ١/١/٨٨ - ٢١/١/١٩٨٨)

الأسد الصغير

أجترُّ عشبكِ من قبيلِ الاستراحة في ربيعٍ كانَ تحتَ

حوافري، ومضى.

أجترُّ ذكرى تعرِّيكِ في العشبِ، بين زهورٍ وشمسٍ،

مررتُ عليكِ مرورَ الهواءِ،

تقوَّستُ فوقكِ مثلَ ازرقاقِ السماءِ،

وكان البحرُ يزبدُ،

لم أكن أسداً صغيراً، كنتُ هذا في زمانٍ مضى.

واليوم أرحلُ، في الفنادقِ، حيثُ ضوءِ الشمعِ فوقَ وجوهِ

الراقصاتِ،

حملتُ جيتاراً لتفهمني البغايا!

في المطاعمِ، حيثُ ضوءُ الشمعِ فوقَ وجوهِ السائحاتِ،

بكيتُ: لمّا مرَّ وجهكِ في مخيِّلةِ المرايا.

وأخيراً،

أشعلت ناراً في ضواحي الليلِ، واقتربتْ سجوني الآن،

والنَّارُ تعلو، والبراري تضيءُ،

هناكَ مشنقةٌ وأجراسٌ تدقُّ، وفي

براري الروحِ ترتفعُ الضحايا.

وعيناكِ، وحدهما، تنظرانِ إليَّ من بين النجومِ،

ولستُ بالأسدِ الصغيرِ، لقد نضجتُ الآن،

واخشوشنتْ غرَّتي فالمسيها؛

سوفَ توصلكِ الأمانَ، وسوفَ توصلني إلى الغابات.

(رام الله ١/٢٦)

الأميرة

أميرةُ هذي المنافي بثوبِ النَّومِ تركضُ في الشوارعِ، حيثُ

سال الليلُ في القنواتِ،

تحملُ شمعتينِ مضيئتينِ، وتنشدُ ما قاله السيَّابُ:

"يا ودياننا ثوري

ويا هذا الدمِ الباقي على الأجيالِ،

يا إرثَ الجماهيرِ

تلظَّى الآن واحرقْ هذه الأغلالْ

وكالزلزالْ

هُزِّ النيرَ أو فاسحقهُ واسحقنا مع النيرِ".

*

أتهادى مثلَ قُبَّةِ موجةٍ في الشمسِ، ثمَّ أقولُ، مثلَ القاربِ

المغمورِ بالوردِ:

هيَّا!

يا حمامَ البحرِ خذني

خارجَ الاحتلالْ!

وأمشي قربَ نهرٍ صافي الأعماق، أهمسُ: هل أستحمُّ هنا؟

وأنظرُ نحوَ قطرةِ ضوءٍ على الموجِ ترقصُ، أجلسُ: هل

سأموتُ هنا؟ وأضحكُ:

إنَّ صوتَ النهرِ في جوفي، وأهتفُ:

كيفَ ننسى في السجونِ بأنَّ خلفَ القفلِ والمفتاحِ لونُ

الساحةِ المغمورةِ الآن بالدمِ، أنَّ

خلفَ الساحة الآن ليلاً، وخلفَ الليلِ خيطُ ضياءٍ من

نجومٍ بعيدةْ؟

كيفَ ننسى اتساعاتِ البلادِ التي لا تبصرُ البَحرَ إلاّ في

حروفِ الجريدةْ؟

أميرةُ هذي المنافي استحمَّت بقربي، نصفَ عاريةٍ، والتفَّ

الطحلبُ في النهرِ على قدميها

المشمستينِ فقالتْ:

"فرق بين الطحلبِ لما تسبحَ فيه، وبينَ جفافِ الجريدةْ".

*

قمرٌ على نخل بعيدٍ،

كان رمشي نخلةً تمشي على طرقِ النخيلْ

قمرٌ على جبلٍ بعيدٍ،

قلتُ: ما هذا؟ أرى أحلام جيلْ!

أميرةَ هذي المنافي،

هناكَ سأمشي، أهيلُ الترابَ طوالَ الطريقِ على لمعانِ الندى

فوقَ جسمٍ قتيلْ.

وأمشي، إلى البحر، بين يديّ كتابٌ من الشّعرِ،

خصلة شَعرٍ لمنْ ودَّعتني.

أو حفنةٌ من ترابِ الجليلْ.

سأمشي لوحدي،

قال الرفاقُ بأنِّي، حتماً، لن أكونَ الشهيد الوحيدَ، فقلتُ:

ولو!

لا أحسُّ بوحدةْ.

لكلِّ نبيٍّ طريقٌ إلى جبل الإلهْ.

وحيثُ ازرقاقُ السماءِ يروحُ، تلوحُ لكلّ نبيٍّ جهةْ.

والليلُ مثلُ الكهفِ،

والماءُ من شدِّةِ الإظلامِ يلمعُ داخلَ الكهفِ، وقاربي في هذه

الزاوية.

والآن أبحرُ، يا أميرة هذي المنافي، أنا الموجةُ العاليةْ.

وأُلقي بنفسي في المياه كأنّها شبكة.

من مثلِ هذا التشابكِ كانَ الوفاءُ عميقاً لديَّ، وكان الوفاءُ

طويلاً لديَّ، ولستُ أُقدِّس إلاّ ذاتي الوافية.

لستُ نبياً مشى نحوَ ناحيةٍ ثمَّ ظلَّتْ رسالته التي بثَّها

منقوشة في ناحية.

خطاي رسالتي، وأنا امتزاج الأنبياءْ،

أميرة هذي المنافي الأخيرة

لست أحبُّ انخفاضَ البلاد، ولست أصلِّي لارتفاعِ السماءْ

فلكلِّ نبيٍّ طريقٌ إلى جبل الآلهةْ.

(رام الله ٢٨/١/١٩٨٨)

التوهّجات

أُوقدُ صفَّ الشموعِ فوقَ مائدةِ الليل، وأرقبُ،
صامتاً مثلَ إلهٍ لا تحنُّ إليه السماءُ
رقصةَ ظلّي فوقِ الجدرانِ، وأصغي
لنباحِ كلابٍ قربَ سجنٍ بعيدٍ، يستبيحُ حياةَ الحقولِ النباحُ.
أحملُ وجهاً من خشبٍ يعرقُ،
ثمَّ ينزُّ العرقُ الباردُ من بينِ خلايا الخشبْ.
ويدٌ من حجرٍ تحفرُ ظهريَ، مثلَ جذوعِ البلوطِ، وتُخرجُ
تمثالَ حصانٍ تحتَ حوافرِهِ
بحرٌ من خشب، وفي فمِهِ قطفُ العنبْ.
تعبرني كلماتُ الأوفياء، كما تعبرُ النهرَ بعضُ القواربِ،
أو كما يعبرُ العشبُ أرضاً تبيحُ له قطعةً من سماءٍ ليس
تشبهُها سماءُ.

أو كما يعبرُ الوحيُ روحَ الأنبياءِ،

كما يعبرُ الآن ضوءُ القمر

في بابِ كهفٍ في جبالٍ بعيدة.

فاتبعوني نحو هذا الكهفِ، لا تأكلوا خبزاً من الطينِ،

تخبزه نارٌ مطفأةٌ،

مهما اتسعَ البرُّ، إذا اتسعتْ خطوتنا، لا تضيقُ بنا الأرض،

إنَّ الطريقَ إلى داخل الكهفِ واسعةٌ،

والبابُ منسرحٌ، لا يصحُّ لمن يدخلهُ الانحناءُ

غنُّوا خلالَ الطريقِ لهذي الطريقِ فليس يليقُ بخطوتنا هذه

إلاّ الغناءُ:

ناقةٌ تحدو لخطوتها إذا كذبَ الغناءُ على القوافل،

والقوافلُ تحتَ المشاعلِ تمشي إذا ما تكاثف ليلٌ، حمولتها؛

عتمةٌ وفضاءُ.

ولنا وحدنا قمرٌ يستدير لنا،

وحمولتنا وردٌ كثيرٌ يفوحُ وحنَّاءُ.

وحدنا نسقطُ بين الحجارةِ،

من عطشٍ أو رصاصٍ،

وفي فمنا الشوكُ، والكلماتُ التي لا يعبِّرُ عنها الكلامُ،

وفي يدنا حزمةٌ من ضياءِ النجومِ،

فإن فقدتْ ضوءَها فحمولتنا،

كلُّها، عتمةٌ وضياءُ.

نمشي إلى الكهفِ يا قمراً لا يغيبُ،

ونقطعُ نهراً واسعاً، واسعاً، وأعزُّ أحبَّتنا يسبحون على

موجه، كلُّهم شهداءُ.

ويهدأ ماءٌ ليصخبَ ماءُ

وأينَ سيذهبُ صوتُ المياهِ، فنحنُ الضفافُ، ونحنُ

الفضاءُ.

ونبكي خلالَ الطريقِ لهذي الطريقِ،

نغنّي خلالَ الطريقِ لهذي الطريقِ،

فنحنُ الشفاهُ، ونحوُ الوعودُ، ونحنُ الوفاءُ.

ونحنُ الشبابيكُ للنجمةِ المقبلة.

(رام الله ٩/٢/١٩٨٨)

الجريح رقم (س)

... قال: "قد ننتهي في البراري، هنا،"

ورمى حجراً في النَّار: "هنا".

"بينَ شجيراتٍ تتمايلُ من ريحٍ في قمرٍ بينَ السرو، ننزُّ دماً،

والنساءُ اللواتي عشقتُ،

الإناثُ اللواتي عشقتُ، يقفنَ على شباكهنَّ ويذكرننا

للجبالِ المقمرة.

نحنُ القرابينُ فوقَ التلال، انتهينا على مذبحِ الغيبِ، في

بركتينِ سنسبحُ

مثلَ شعاعِ النجومِ، هنا، وحورية الماء..."

كان يكزُّ على شفتيهِ وأكمل: "هل سنرى الشمسَ والبحرَ

والموجةَ الخضراء؟".

قلتُ: بلى، نستحمُّ بماءٍ حقيقي... بماءْ...

أتذكَّرُ كيفَ ضحكنا مرَّة في الزَّبدْ؟".

قال: "أحاولُ... كان اليومُ يومَ الأحد...

كنَّا عراةً مثلما جلبتنا أُمُّنا".

عضَّ على شفتيهِ وأنشَد ما قاله درويشُ يوماً: "رفعنا إليكَ

مناقيرَ أرواحنا: أعطنا حبَّةَ القمحِ يا حلمنا".

وزحفنا نحوَ رائحةِ البحر.

(رام الله ٣١/١/١٩٨٨)

مياهٌ ساخنةٌ ثقيلةْ

تتدفَّقُ من قمَّةِ الجبلِ المرمريِّ، ومن سفحهِ،

وتسيلُ،

فهل نستحمُّ وننجو يا رفيقَ السفر؟

مدنٌ من الطينِ الآجريِّ، رماديةٌ،

بينَ جبالٍ تزيدُ علواً،

نطلُّ على أوديةٍ مخطَّطةٍ مثلَ حمارِ الوحشِ من

شجرٍ داكنِ الاصفرارِ،

وخاليةٍ إلاّ من زفيركَ فيها، ومن

هبَّةِ الريحِ في شعركَ الأسود الناعمِ، هل

سوفَ نجمعُ من عشبها باقةً ثمَّ ننجو

بقبلةٍ لغزالٍ، بجلسةٍ تحتَ ازرقاقِ السماءِ على حجر؟

قلبي ينبضُ؟ أم

هذه نبضةُ الريحِ تمسحُ ما سوفَ يدلُّ علينا؟

وتثقلُ هذه المياه الاستداراتِ في ممر الشجر

هذي سماءٌ متشابكةٌ، منسوجةٌ بيدِ الخيَّاطِ من

سعفٍ وشجيراتٍ خضراء،

وندخلُ في دهاليزِ المرايا؛

حيثُ ننظُرُ ترتدُّ نظرتنا إلينا في المرايا،

حيثُ نخطو يجيءُ الصدى من خلفنا،

مثلَ ضباعٍ تختفي عندَ الزوايا

إلى أينَ نعبُرُ، أم كلُّ هذا خدعةٌ من خداعِ البصر؟

بلا مركزٍ نتماسكُ،

هل نحنُ هنا أقوياءُ؟

بلا مركزٍ نتماسكُ،

مثلَ قبَّةٍ من سماءٍ تزيدُ ازرقاقاً، ومسبوكةٍ من زجاجٍ غريبٍ،

هل نحن ليلٌ وشمعٌ تحتَ هذي القبابِ؟ أم المسيحُ المنتظر؟

*

سنكتبَ ما سوفَ يمليهِ علينا انحناءُ البناءِ،
فمن لغةٍ إلى لغةٍ،
ومن جزرٍ تحتَ الغروبِ، إلى سباحةٍ في مياه القمرْ.
ما الذي يكتبه انحناءُ الجسر فوق الماءِ، تداخل بعض
هياكلِ عظميةٍ تُسجّى في مقابر الشهداءِ؟ صعودُ البرج في
ماءِ الهواءِ؟ عواءُ الريحِ في ليلِ الشتاءِ؟، أو صلاةُ شعاعِ
الغروبِ على كتفيكَ؟ أو شهوةٌ لزوايا النساءِ؟
ما الذي نهربُ منه؟
التعوُّدُ فوقَ الرملِ على الشمسِ البحريةِ؟ أم
أحمرُ الشفاهِ على أجملِ وجهٍ يمنحُ قبلتهُ للهواءِ؟
أعطيتكَ الماءَ فأعطني شجري
وأعطيتكَ اللَّحن فامنحِ اصبعي وتري
منحتكَ النقاءَ، هبني حبَّة تينٍ، فنقِّر من عسلي
أيُّها العصفور، وادخل في جملي.
عاصفة من عصافير، ورديةً، خضراءَ حمراءَ، تمرُّ في قعرِ
البحر على قاربي

وتفرُّ من قُبَلي.

فوقي البحرُ، أنا القعرُ، وفوقي الله أنا العبدُ،

وفوقي مقصلةٌ، وأنا مدخل معتقلي

منحتكَ ازرقاقَ جهاتِ السماءِ، فارجعْ أجنحتي

إلى حبِّ الفضاءِ،

منحتكَ جهلي واتساعاتِ أوديتي

فأمهل شجري

لما يعزُّ عليه انحنائي

على نقطةٍ مقفرةْ،

أصبحتُ موقدَ نارٍ يتوهجُ،

يا زمنَ الجمرِ: حافياً أمشي على جمري

فامنحني لحظةَ الثلجِ حتى أبدِّل ما يغلي من الأعصابِ في

قدميَّ

بفردةٍ من حذاءٍ.

(رام الله ١٧ / ٢ /١٩٨٨)

الخرز

(١)

كالخرز الأزرق علَّقني الناسُ على أبوابِ بيوتٍ يتخلَّلُ

عشبٌ بريٌّ بين حجارتها،

هل ستأتي العروسُ محناةً إليَّ؟ وتدخلُ باباً يحرسه خرزي؟

أم سوفَ يخطفني، مثلَ لونِ الشبابيك، الصدأْ؟

هل سأخطو خطوةً أُخرى

أم سأبقى ساجداً في المبتدأ؟

وتطرِّزني فوقَ ثيابِ المخملِ كلُّ صبايا البلادِ، يعلقِّنني فوقَ

الصدورِ،

أتلمسني، ذات يومٍ، فرحةٌ مقمرةٌ أُخرى؟

وعريسٌ يتهادى مثلَ أمواجِ الخليجْ؟

أيعزفُ نايٌّ مقمرٌ هندسةً في خيوطي؟

أم سأبقى غرزةً صغرى

في النسيجْ؟

أخافُ لمَّا يجيءُ العرسُ أو يدخلُ قلبي حصانُ الفرحْ

أن لا أستطيعَ

سوى النشيجْ!

(رام الله ٢٣/ ٤/ ١٩٨٨)

(٢)

يا رفيقي وأخي، ما لنا؟

كلُّ نهرٍ واسعٍ يسأل الآن إن كان يكفي لنا نصفُ مجرى!

كلُّ كسيحٍ يملكُ خارطةً للمرَّاتِ، ولكننا

نتردَّد قرناً قبل وضعِ الخطوةِ الأُخرى،

إنَّ نجوماً تسقطُ،

مثلَ غبارٍ ورديٍّ أو ذهبيٍّ أو أخضرَ، في بئرِ الليل،

وفي عمقِ البئرِ أرى باباً خشبياً يفتحُ أو يغلقُ،

منها الهواءُ يهبُّ، وفيه زهورُ.

وأرى الكونَ أسطوانياً،

يدورُ، يدورُ، على نفسهِ ويزيدُ زوايا ونحنُ كسورُ.

عن أيِّ عمقٍ نعبِّرُ نحنُ؟ فحيثُ نظرنا سطوحُ البحارِ

الزرق تطوِّقنا،

وخلاءُ السماءِ يزيدِ خلاءً،

والعشبُ اليابسُ تحت خطانا يتكسَّرُ، يوماً بعدَ يومٍ،

وهذي البراري تزيدُ اتساعاً،

فمن أينَ ينزلُ شيءٌ جديدٌ علينا ومن أيِّ طورٍ سينزلُ؟

من أيِّ طُورٍ؟

ويبدو بأنا سنرحلُ حيثُ تقودُ خطانا،

فأين ننامُ أخيراً؟ ومن سنودِّعُ؟ من سيرافقنا؟ عزلةُ

الترحالِ أم مجرى النهورِ؟

يا إلهي تعبتُ،

تعبتُ، تعبتُ، وأطلعُ كالوردِ بينَ حجارةِ سورٍ لتصدمَ

وجهي حجارةُ سورٍ!

(رام الله ١٩٨٨/٦/٢٥)

(٣)

وتفيق على ضوءٍ يطفحُ من قنديلٍ في ليلٍ في أرضٍ محروثةْ

وسياجٍ حولَ ضباعٍ تتوحَّشُ،

ثمَّ تكادُ تجنُّ من العزلةِ،

أو خيلٌ وتحمحمُ في أعينها

أحزانٌ مألوفة.

تمشي بين الأفعى والأفعى؛

أحكم من خطوةِ موسى في البحرِ الأحمرِ،

لكن تلدغكَ الأشياءُ المعروفة،

وطريق حياتكَ عاريةٌ ومخيفة.

(رام الله ١٧/٧/١٩٨٨)

(٤)

وهذا الدخانُ تعالى

تحتَ نجومٍ تحتَ عرشي

فجاءَ الإله لكي أتنازلَ عن لفظةٍ منها يصوغُ حروفَه.

أنا من يذبح الأنبياءَ فيبعثُ نحوي الإله خروفه

فديةً فوقَ الخرابِ،

لكي أتنازلَ عن رغبةٍ عابرة.

(رام الله ٢٢/٧/١٩٨٨)

الرَّقص

مثلَ ظلالٍ زرقاءَ تصعدُ الدرج ليلاً،

تقتربُ النية في الرقص.

وليفهم الشبحُ الذي يشبهُ السلَّةَ المستديرةَ في غرفةِ نومي

أنَّ عليه أن يمضي.

ليست لديَّ خطى لتملأ غيري،

ولا إضاءة لي

غيرَ ظلالٍ زرقاءَ تصعدُ الدرجَ ليلاً

(وظلالي لي)

- والرقصُ لذاته ليس حراماً مثلما قال الغزالي -.

هو لا يكفي كي ألحَّ عليه ليخرجَ، لكن أمنحهُ الفرصةْ

وعليه أن يمضي،

وسأرقصُ اللَّيلة أجملَ رقصةْ

(من غيرِ مزاميرِ، طبعاً، لست حيَّة كوبرا)،

وقريباً، كخطفةِ برقٍ، تغطِّي الضواحي ظلالُ خطايْ.

عندما أرقصُ أنسى

بأنَّ عليه، الشبحُ الذي يشبه السلَّة المستديرةَ، أن يفهم أنَّ

السماءَ سمايْ،

وعليه أن يمضي وإلاّ

أضحي به لخطايْ

مثلَ سلَّةِ قشٍّ تخطو فيها النارُ كمهرة

وعلى الأرض السلام

وفي الناس المسرَّة!

(رام الله ٢٣/١٠/١٩٨٨)

الحدس

باسم الله!

THE PATIANT THE MERCIFUL

شيء بالفعل جميلْ:

الصبورُ الرحيم

اعتمرت بالطقوس وخاطبت الإله الذي في تلكَ المرأةِ

حينَ جنَّ جنونها ورمتني بحجرْ

متأوهةً: أنت!

قلتُ: مخيفٌ أن تدخلَ عالمَ الحدسِ

وتدقَّ البابَ خائفاً قائلاً:

باسم الله!

THE PATIANT THE MERCIFUL

فرويد خطأ (X) (X)

مَا المريحُ؛

أن تمارسَ الجنس طبعاً وأنتَ تطيرُ،

شيء بسيطٌ وطبيعيٌّ ومريح

كبساطِ الريح

أو حيثُ بنفسي لنفسي

أنَّ ما قاله صحيحْ،

أن تطيرْ

يعني ممارسة الجنس طبعاً.

وخلطتُ بين الجنسِ والطيران مثلما

يخلط هذا الأميرْ

بين؛

حقيقة الإيحاء والإيحاء

بحقيقة (هذا مهم طبعاً).

لكنَّه لفظ اللفظة الخطأ

بجرأة الحقيقة

وهذه حقيقةٌ تختصُّ بالأمراء؛

حكّامُ أرضِ الرّوح.

(رام الله ١٥/٨/١٩٨٨)

هذا هو الفيضَانُ

تتلاقى فيضاناتُ الأنهارِ ونحنُ التلاقي الحكيمُ

إذا ما ارتطمنا كقرشٍ يناطحُ قِرشاً فوقَ

موجٍ يناطحُ موجاً كيفَ يجذبنا للسطحِ شيءٌ قديمُ؟

وفي فمنا الملحُ والرغواتُ،

يعزُّ علينا نموتُ ونحيا فلا الموتُ موتٌ

ولا العمرُ خطٌّ مستقيمُ.

"مردوك"، يا أبتاه، خلِّ الرأسَ فوقَ الموج، خلِّ الابتلالَ،

وخلِّ جنونَ الجبالِ التي

أظلمتْ كي تستعيدَ صياغتها حين يطغى السديمُ

خلِّنا نلمسُ القاعَ، والوحلَ، أيضاً، فهذا زمانٌ تُخنَّثُ فيه

التجاربُ،

ألقِ النوايا التي أثقلتنا، زادُ رحلتنا الفجلُ الثومُ والسفنُ الغرقى
وأنتَ الإلهُ ستفتتحُ الأرضَ، ثمَّ آتي فأغتصبُ الأرضَ بعدكَ،
أُنثى فأُنثى،
ويلهثُ خلفي كي يؤنّبني هذا التراثُ السقيمُ.
هذا تراثٌ تُخَنَّثُ فيه التجاربُ،
والوحيُ ينزل بحثاً عن الأنبياء فيركضُ بينَ الغنمْ
يا فحلُ، لا تهمرْ على أنثىً بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ، ولا ترعى قطيعَ المواشي التي عميت من هواء القممْ.
تعالَ،
لنبحثَ عن قطيعٍ تفيضُ الأُنوثةُ فيهِ، تعالَ،
فنحنُ الوعول التي حفرتْ في السماءِ مكاناً لتسكنَ في الازرقاقِ،
ألا يوجد الآن بئرٌ ندلّي فيه أقدامنا؟
هذا زمانٌ تُجفَّفُ فيه القلوبُ وتشعرُ بالحبِّ فيه القدمْ.

لا تخفْ من خطوتنا في زمانٍ مضى.

لا تحدِّد لي شكلَ الوليدِ ولا نوعهُ، لم يزل يتهيأ في رحم العدمْ

لا تحدِّد أيَّ أُنثى أُمَّه،

إن قابلة لستُ أعرفها تنفخُ من روحها فيه، فدعنا

نبيحُ الخصوبة في البدء،

فالفحل يشخب فيه حليبُ الخصوبةِ في المرج، دعهُ

لئلا تجيء سنينٌ عجافٌ، وسبعُ قرون من ندمْ.

دعنا نغادرُ كلَّ جيلٍ حوله صنمٌ ثمَّ مرعىً للقبيلة، دعنا

نُصفِّر فوقَ الثلوجِ لهذا العراءِ، ونرضعُ قهقهةَ السيلِ فوقَ

جنوب اليمنْ.

ليس لنا إلاّ مرعى الفحول،

وحيثُ يكون احتدادُ الصخورِ التي أقدامنا دماً تنزُّ عليها

يكون الوطنْ

لنشرَّدْ!

ما الذي تبكي عليه إذا هدموا كوخنا وفقدنا السكنْ؟

لا تخفْ من كلامكَ، هذا ابتذال قطعناه،

قل ما شئتَ مهما يكون الثمنْ.

فلنشرِّدْ على كلِّ أرضٍ،

فلسنا عذارى بطروادة كي نركبَ النهرَ على خشبة

وثيابنا مبتلَّةٌ بالشمسِ والماءِ والفخذِ البريءْ

لسنا عذارى تلفَّتنَ خوفاً من سهامٍ تجيءْ

من خضرةِ الغاباتِ أو من

حفيفِ الفهودِ الجريءْ

لسنا عذارى

لنبكي على بوَّابة الديرِ والعتبةْ

إذا موجةٌ أسرعت ممطوطة الرقبةْ

من قبلِ ما كنَّا ومن بعدِ ما صرنا

بغاياً مقدسةً في المعابدِ

أو لعبةً للزمنْ.

(رام الله ٢٥/٢/١٩٨٧)

توليفة أفريقية

تقدَّمني، ثمَّ قدَّم لي، من بقايا عالمِهِ، بعضَ فتاتِ

في زقاقٍ يلمُّ بقايا أناسٍ من بقايا شتاتِ

كنتُ أشعرُ في هذا الزقاق بشهوةٍ لبناتِ

وارتياحٍ لهذا المصيرِ

وكانتْ هنالكَ نارٌ تنيرُ كثافةَ ليلٍ، وأذكرُ،

كانَ هنالكَ رقصٌ يضيءُ على قرعِ طبلٍ توحَّشَ، أذكرُ،

كانت لنا ضحكاتٌ وارتياحٌ لهذا المصير.

وهذا طريقي، أخيراً، طريقي الأخيرُ إلى قدري المستديرْ،

عبرَ شيءٍ جميلٍ، وشيءٌ تنفَّسَ بالكبتِ، أو فلنقلْ فيه كبتٌ،

وشيءٌ تناقضَ، لكن.. أحسُّ ارتياحاً لهذا الطريقِ الأخير.

(رام الله ٢٠/٨/١٩٨٨)

وردتنا مترٌ في مترٍ من الزبد الأبيضْ

وردتنا من الزبد الأبيضْ

حتى نجذبَ الفراشات الليلية

التي يسكرها العبق،

الفراشات التي تأتي من النجومْ،

وتحلِّقُ،

بعد موت وردتنا الزبدية،

في عطرِ الذي مضى.

(رام الله ٢٠/٩/١٩٨٨)

ليلى وتوبة

قصائد من المنفى إلى ليلى الأخيليَة

مقدِّمة ممكنة

"الأَخْيَلِيَّةُ" اسمٌ يشبهُ شبَّاكاً يدخلهُ هديرُ بحرٍ ليليٍّ، فيه رائحةُ الوردِ والموجِ الموحش وصفيرٌ ضائعٌ في الشاطئ. "وتوبةُ" فيه نزولُ الريحِ إلى غروبٍ مُتعَب.

سكنتني ليلى الأَخيَلِيّةُ منذُ عصورٍ سحيقةٍ، عندما كنتُ طفلاً، وسمعتُ عنها لأوّل مرّة، شاعرةٌ عربيَّةٌ قديمة فقدتْ حبيبَها توبة، فزارت قبرَهُ على ظهرِ جمل. وتخيَّلتُها واقفةً في صمتِ القمرِ وظلالِ اللوزِ في مقبرةٍ في جبلٍ برِّيّ. ويقالُ إنّها سلَّمت عليهِ قائلةً: "عليكَ السلامُ"، وانتظرت أن يردَّ عليها، فكرَّرتِ السلامَ، وأصغتْ لهواءٍ ذهنيٍّ، لا جوابَ لديه. فلامتهُ قائلةً: عليكَ السلامُ، ألستَ القائل:

ولو أنَّ ليلى الأخيليَّةَ سلَّمتْ عليَّ ودوني جندلٌ وصفائحُ
لسلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ أو زقا إليها صدىً من جانبِ القبرِ صائحُ

يقالُ بأنَّ بومةً، أو قَطاةً، فرَّتْ من بينِ الشجرِ فجفلَ الجملُ ووقعت ليلى عنه، فدُقَّ عنُقها، فدفنتْ بقربِ حبيبِها.

وأحياناً كانت تقفُ كنباتٍ معلقٍ بالتسمعِ [illegible]ـمرِ، وتدعوني إلى فتح

روحها للهواءِ والأضواءِ المهجورةِ في الضواحي، ورافقتنيَ من

منفىً إلى منفى، وكلّما فقدتُ شيئاً بالغربةِ، وحاولتُ أن أُحدِّثَ

أحداً عن وحشةِ الروح، قالت:

جوابَ لديه. فلامتهُ قائلةً: عليكَ السلامُ، ألستَ القائل:

وذي حاجةٍ قلنا لـه: لا تبحْ بها   فليسَ إليها ما حييتَ سبيلُ

فيغمرني هديرُ البحرِ، والشعرُ بوحٌ عن حاجةٍ ليس إليها سبيل، بوحٌ

عندما تلامسُ اللغةُ الصمتَ الكامنَ فيها، والممتدَّ خارجها، تلامسُ عدَمها، وتبوحُ بشيءٍ ما ورائي. ومن لفظةِ "الأخيليّةِ" يقطرُ وحي غامضٌ، في جوٍّ بدائيِّ الحضور:

"كان لا يتبعني، في الليلِ، إلاّ صمتها،

حينَ يمتدُّ أمامَ البابِ

كالشارعِ، كالحيِّ القديمْ"(٥).

وتختفي اللغةُ تاركةً أرضاً تُدعى بنتُ الصبحِ(٦) فنحدسُ شيئاً وراء اللغة، "يخرجُ منا كما تخرجُ الأرضُ من ليلةٍ ماطرة"(٧) حتى تبزغ وردةٌ من الرخام شاردةً في ذكرىً قديمةٍ، أو تتأمّل، تحتَ جسرٍ من زجاجٍ أخضر الهندسة. وردةٌ لا اسم لها، ويصيرُ القلبُ نَحاتاً يستخرج من شرودِ الرخامِ لفظاتٍ كامنة. التمثالُ في الصخرِ، والنحّات يخرجهُ حرّاً.

واللغةُ نحتٌ يخرجُ إلى الوجودِ مخلوقاً ممكناً. و"الأخيليّةُ" إيحاءٌ بما لم يزل كامناً في الرخام، سرٌّ نتحسَّسهُ فيفلتُ من أيّةِ لفظةٍ جاهزة. و"الأخيليّةُ" بدايةُ الموج، موسيقى تبحثُ عن مؤلفٍ وحساسيّةِ روح. إنّها الفرقُ بين "فحلِ حمامٍ في جبلٍ مهجور"(٨) وبينَ "شوليت" التي انتظرت صاحبها في مدخلِ البارِ، فتمنّى حارسُ العنفِ لها ليلةً من مرايا ورقصٍ وقمر(٩)، المسافةُ المغتربةُ بين توليفِ

مألوفٍ وموروثٍ، وبين شاعرٍ يحاولُ لفظَ ما يتأتوه الوجود. فاللغةُ قفصٌ مقفلٌ، والحنينُ إلى الفضاءِ المفتوحِ على الحدود، حينَ يصيرُ الفعلُ حدساً بأنهارٍ من غيرِ مجرى في الجهةِ الأُخرى للروح. هي "جوّ" مهيّأ للخلق يشكّكني في يديَّ في قدرتي على الإتيان بفعلٍ مبدعٍ وجديدٍ بأصابعٍ ممتدةٍ في رمادٍ مضى.

مجنون ليلى، كلّما سمعَ منادياً ينادي باسمها، كانَ يحسُّ بأنَّ طيراً يفرُّ من صدره، وطيورٌ كثيرةٌ فرّت من صدرٍ صار ككهفٍ نُحت في الصخر، فمتى يصيرُ الصخرُ طيراً، ويهاجرُ مثلَ الصدى خلف، أو في لغةٍ يكمن فيها القلبُ كرائحةِ الزعفران؟ "فالعقلُ ليسَ سوى دخانٍ، فليضعْ!، إنَّ القلوبَ تدُلُّنا..."[١٠].

الملاحظات:

(١) محمود درويش.

(٢) وليد الهليس، الذهاب مبكراً إلى الموت، ١٩٧٨.

(٣) محمود درويش، "ربّ الأيائل يا أبي.. ربّما"، أرى ما أريد، ١٩٩٠.

(٤) مظفر النواب، "حبيبتي أشمُّ زنديك".

(٥) محمود درويش، العصافير تموت في الجليل، ١٩٧٠.

(٦) مظفر النواب، "تل الزعتر".

(٧) محمود درويش، "عائد إلى يافا"، أحبكُ أو لا أحبك، ١٩٧٢.

(٨) مظفر النواب، وتريات ليلية.

(٩) محمود درويش، "كتابة على ضوء بندقية"، حبيبتي تنهض من نومها، ١٩٧٠.

(١٠) محمود درويش، "الهدهد"، أرى ما أريد، ١٩٩٠.

يا طفلةَ خضراءَ كالمصباحِ تحملهُ يدي

في بابِ كهفٍ تحتَ ليلٍ في جبلْ؛

ضوؤكِ السِّريُّ يسري حافياً

بين الحجارةِ والحجلْ

مثلَ ظلِّ إلهْ

ثمَّ يكشفُ ما نوينا أن نراهْ،

من حولهِ "المخفيُّ" يهمرُ مثلَ ضبعٍ

سوفَ تتبعنا خطاهْ

فزرعتُ عدَّةَ أسهمٍ في ظهرهِ

باحتْ دماهْ

بحضورهِ السِّريِّ بينَ مخاوفِ المشمشْ؛

إنَّ المسافةَ بين الفروعِ وبينَ الجذورِ تسمَّى:

"نضوجُ الشجرْ"

سَمِّها بُعْدَنا عن تربةِ الأصلِ،

أو قربَنا من غموضِ القمرْ.

واللفظُ بيضٌ كسَّرتْهُ لتخرجَ منهُ فراخُ الحمامْ

واللفظُ رحمٌ غادرتهُ التجربةْ

فارغاً- كالكهفِ بعد خروجِ النعامْ

سمِّهِ "عجزَ اللغةْ"

أو حيرةَ الأشياءِ من سرِّ الولادةِ بالعذابِ وبالسلامْ

سمِّهِ تركَ السلالمِ مطروحةً،

خشباً بلا روحٍ،

على سورٍ قفزنا فوقه لاحتلالِ المدينةْ؛

كانتْ سلالمُنا بدايةَ الاقتحامْ

فاستَبحنا ما استَبحنا واندفعنا للأمامْ.

يا طفلةً خضراءَ كالمصباحِ،

ضوؤكَ كانَ من كفَّيَّ يطفحُ في ليالي الخوفِ،

كانَ يشعُّ في وجهي،

فيختمُهُ كمكتوبٍ،

ويبعثهُ إلى جهةِ السماءْ

وأتى عليَّ الانمساخُ أتى عليّ،

صرتُ وحلاً في الحقولِ وصرتُ ماءْ.

وخرجتِ من جسدي

خروجَ السروِ من سفحِ الجبلْ

سمَّيتُ هذا نضوجاً، أو وداعاً،

واحتياراً، أو ضياعاً،

واختياراً، أو قدرْ..

وانفتاحاً في الشبابيكِ التي بين النجومِ،

لكي تفاجئَني اتساعاتُ

الفضاءْ.

ينامُ الليلُ مثلَ القطِّ في حِجْري،

وبينَ يديّ

وأُحدِّقُ في عينيهِ طويلاً،

ويحدِّقُ في عينيّ

يا ليلى أُحبِّكِ، مثلَ مجنونٍ، وأفشلُ أن أبوحْ!

أصابِعُكِ البيضاءُ تعبرُ في حلمي..

كعشرِ مرايا

وأرى وجْهِيَ فيها كنارٍ بغيرِ دخانْ

لا تجرحي القلبَ،

يا رغبتي في الحنانْ.

يحدثُ في حلمي وأحِنُّ إليكِ،

فأنزلُ مثلَ رفوفِ الحمامْ

في أرصفةِ المدنِ الشتويَّةِ في عينيكِ،

وأنقرُ ذبذبةَ الأضواءِ من بِركِ الماءِ، وأسألُ:

"يا شارعَ الأضواءِ ما لونُ السماءْ؟

وعلامَ يرقصُ هؤلاء؟.."

"من أين أعبرُ والصدورُ على الصدور؟" (محمود درويش)

يحدث أن أرقصَ بين الغرباءِ، هناكَ،

غريباً على شارعٍ فيهِ ثلوجُ القمرْ

ومصابيحُ النيونِ نهودٌ من زجاجْ

تُغسِّلُ وجهي بضوءٍ كالحِ الابيضاضِ،

بقربِ جليدٍ تجمَّدَ فوقَ

نوافيرِ عاجْ.

لا تسأليني:

"لماذا تحبُّ السفرْ

في موجِ عينيَّ؟"

من عادةِ الأسماكِ تسبحُ للأعماقِ،

حين تحسُّ بقربِ الزلزلةْ

وبخَلْخلةِ الأشياءِ،

حبّيَ للخلخلةْ

بحثيَ عن روحِيَ، مهما يكونُ النِتاجْ؛

قبلةٌ أم مقصلةْ.

فتعالي إليَّ،

لأحمل جسمَكِ البرِّيَّ في كفَّيَّ مثلَ البوصلةْ

وأراكِ تنتشرين،

مثلَ الضوءِ في سُفُنِ الكلامْ.

طرقُ المطاراتِ الحديثةِ فاتِحةْ

لمتاهةٍ من كهرباءْ.

في كلِّ عتمٍ لنا ضوءٌ وفي

كلِّ ضوءٍ لنا دربٌ وفي

كلِّ دربٍ لنا شبرٌ وفي

كلِّ شبرٍ لنا فخٌّ وفي

كلِّ فخٍّ لنا لحمُ فخذٍ وفي

كلِّ فخذٍ نحنُ أوَّلُ من نُتَّهمْ!

في كلِّ أُغنيةٍ لنا حرفٌ وفي

كلِّ حرفٍ لنا حبٌّ وفي

كلٍّ حبٍّ لنا قلبٌ وفي
كلِّ قلبٍ لنا سكينةٌ وغزالةٌ ووطنْ.

فاعذريني،
جئتُ من شجرِ الدماءِ، أو الجليدِ، أو العدمْ
رفّاً حزيناً من طيورٍ جارحةْ.
قد قيلَ لي:
لا صوتَ لي
عبرَ الحياةِ، وبعدها نومٌ بلا صحوٍ
على أرضٍ بلا قبرٍ
فلا قَدَرٌ يؤدي للجحيمِ، ولا طريقَ إلى عدنْ
فإذَنْ،
تعالي كالطيورِ، إذنْ،
إذا ما شئتِ، من عَفَنِ الآن، أو عفنِ البارحةْ.

"كانت مدينتُها – مدينتُنا قديماً – لا تنامْ

فسهرتُ – حتى الصبحِ – في طرقاتِها

وشربتُ – أحياناً – مدامْ". (محمود درويش)

تعالي إليَّ، فما

زلتُ بين الظلِّ والأضواءِ في مدنِ الرّخامْ.

- المصابيحُ؟

- خضراءُ، خضراءُ جداً، وفي

بركةِ اللونِ كلصٍّ وفي

أسحبُ الماضي ورائي كالفَرَسْ.

في الضواحي أَمرُّ،

بقربِ نقنقةِ الضفادعِ في ماءِ صوتِ البغايا،

هنا وهناكَ،

أمامَ المراقصِ أعني، وحولَ الزوايا

دخانُ الحشيشِ، وفي

عتمةِ الميناءِ يغمرني هديرُ الموجِ،

لا خمري لهُ طعمٌ ولا حزني لهُ سببُ..

- وليلى الأَخْيَلِيَّةُ؟

- أين ليلى الأخْيَلِيَّةُ يا غلامْ!

أنادي عليها

لأدفنَ وجهِيَ بين يديها

كما في النَّارِ تدفنُ ذكرياتٌ كلُّها حطبُ..

"بربِّكَ إنْ سمعتَ خطى خيولِ الأخْيَلِيَّةِ بعدَ موتِيَ،

دُلَّها

ليلاً على جهتي.. خيولُ الأَخْيَلِيّةِ دُهْمَا،
واطرحْ على ليلى السلامَ، وقلْ لها.."

وبكى على كتفي..
ومالْ
من سكرهِ، أو ربَّما غضباً، وقالْ:
"هي نزوةٌ في الخَلقِ،
أعني سوف أخلقُ محوراً آخرْ
لتَحَرُّكِ الأشياءِ في المنفى..."

قمرٌ يغمرُ الغربَ، وريحْ

تحملُ القلبَ، ويهتزُّ ظلُّ اللّوزِ فوقَ المقبرةْ...

من هزَّةِ اللّوزِ شيءٌ، ومن وخزِ الذاكرةْ

شيءٌ يقولُ لها:

"إن زُرتِ قبريا بعد الهُجوعْ

تَريْ عظاميا تحاولُ الرجوعْ."

تريْ..

تُحاولْ..

وفحيحُ الريحِ يزيدُ القَشْعريرَةَ في روحِها..

"تَريْ عظاميا تحاولُ الرجوعْ

إن زرتِ قبريا..."

يا توبةُ حاولْ!

توبةُ في الزاويةِ الأبعد للأشياءْ

في الشاطئِ الآخرِ توبةُ، يشبه ناراً وراءَ الجبلْ

تختفي إلاّ من الذاكرةْ.

تمتَمَتْ لهْ: "سلامٌ عليكَ"، وأصغتْ لهْ

ولم يأتِ ردّ.

وليلى حافيةْ

مثل ومضةِ وَرْدْ.

تمتَمَتْ لهْ: "عليكَ السلامُ"، ولم يأتِ إلاّ الصدى.

فإذَنْ، كيف قال إذَنْ:

"ولو أنَّ ليلى الأخْيَلِيَّةَ سلَّمتْ

عليَّ ودوني جَنْدلٌ وصَفائِحُ

لسلَّمتُ تسليمَ البشاشَةِ أو زَقا

إليها صدىً من جانبِ القبرِ صائحُ"؟

قربها جَمَلٌ رماديٌّ يميلُ إلى الاحمِرارِ،

يلوكُ العُشْبَ اليابسَ

حيناً، وحيناً يفكِّرُ في
معنى الوقوفِ على طللْ.

قال لها أو قالت لهْ
إنَّها خسرتهْ.
قال شيئاً عن خسارةِ شيءٍ في حديثٍ نسِيَتْهْ.
وأحسَّتْ بالمسافةْ..
توبةُ آخرْ..
توبةُ في البعدِ الخامسْ..
ركبتْ صاحبة القامةِ فوق الجَمَلْ
واستدارتْ نحو ظلِّ جبلْ
كان ممدوداً على الوديانِ. توبةُ، آهِ توبةُ لا يفي...
لَمَعَتْ عندَ حدودِ الظلِّ عباءتُها الصفراءُ،
كشعلةِ عودِ ثقابٍ يختفي..
يختفي..
يختفي..

فِي ليلةٍ فِي غرفةٍ فِي شتاءٍ، كنتِ غافيةً

فِي يديَّ، كأزهارِ جمرٍ، تعزُّ عليَّ،

بعثتُ بروحي لجمرِك.

يَدِيَ اليسرى انحَسَرتْ مثل مَوْجةْ،

رجعت صفراءَ كالليمونِ، واللهِ، أقسمُ يا ليلى بعمرِكْ،

رجعت صفراءَ كالليمون، بين أصابِعِها جمرةٌ من حَنينْ

لجميع من مرُّوا مروراً، كالخيولِ، على ثلجِ عمرِكْ،

وقد كتبتْ عليها، بحفرٍ سَوْمريّ، جملةٌ:

"أنتِ دوماً تحلمينْ

بغيري في حينِ لم أَحلمْ بغيرِكْ".

فتحتُ الشبابيكَ ليلاً وأمنحُ وجهي للمطرْ

حُرّيَّةٌ في الريحِ وجهِيَ، فلنقلْ: هو منحةٌ للمشنقةْ

وفرارُ فَراشاتِ الشكوكِ من الشّرْنقةْ

كنتِ تغتربينَ عن قلبي، وتنفصلينَ

والدنيا سفرْ..

مرِّي مروراً كالخيول على ثلجِ عمري..

ليلاً أنخْنا الجِمالَ،

قُبَيْلَ الساعةِ الواحدةْ،

في بطنِ أوديةٍ جائعةٍ لضباعٍ منفردةْ.

وخطىً أو عواءٌ، داخل العتم، كلُّ اعترافٍ، وما

من حروفٍ تُفَكُّ، وما

من عَلامةْ

لجميعِ من مرُّوا هنا. فالإقامةْ

في عرقِ زيتونةٍ أو صخرةٍ: أرنبٌ ضائعٌ أو بَصَلُ

نَيِّءٌ كلُّ ما يحيا هنا. وعلى كلِّ وحشٍ أن يصيدَ طعامهْ

من موجةِ الوحلِ، فالرمشُ شوكٌ،

والمَحَبّةُ أفعىً، والثقةْ

جهلٌ، فكيف انتهينا إلى هذهِ المنطقةْ؟

صدفةً أم قدراً، نحن مرميُّونَ في معدةِ الخوفِ،
لنبحثَ فيها عن سلامةْ!

تجوَّلتُ في الغابةِ الزرقاءِ – اللونُ سِرٌّ –

"أتابعُ" مثلَ الغزالةِ خيطَ عطرٍ من عطورِ الأخْيَلِيَّةِ،

والعنادلُ في سبيليَ نصفُ ساهمةٍ،

وقد زُرِعَتْ،

في رأسِها إبرٌ إذا نُزِعَتْ

عاودتها رغبةٌ في الغناءِ،

وقد ينفكُّ عن أحوالِها السِّحْرُ.

قصرٌ من البلَّورِ، أدخلُ بابَهُ،

وأشمُّ رائحةً من الوردِ الكثيفْ

آخِرُ الروحِ هذا،

فسجني مخيفْ.

وأراكِ خلفَ البابِ ظلاًّ أخضر، وتمرِّينَ ولا تَدْخُلينْ

وتمدِّينَ كفَّيْكِ للمفتاحِ. تقتربينَ في خوفٍ وتبتعدينْ

وأبقى واقفاً،

في قاعةٍ زرقاء مغلقةٍ بالانتظارِ،

لماذا إذنْ تَعِدينْ،

مثلَ أُغنيةٍ على جيتارِ روحي

تبذرُ الشكَّ في قصرٍ وحيدٍ

حوله وردٌ يحنُّ إلى اليقينْ؟

سافَرْتو في ليلِةْ قَمَرْ

خَلّيتو قلبي عَالدَّرَجْ

يِلْمَعْ مِثِلْ دَبّوسْ فِضَّة. آه

لو حَطّيتو قلبي في جَدايِلْكُمْ.

سافَرْتو في ليلِةْ قَمَرْ

- هيك القَضا -

خلّيتو قلبي في الفَضا

طايِرْ مِثِلْ منديلْ فُوقِ الشَّجَرْ حملوا الهوا.. بسْ آه.

لو طوّيتو قلبي في حَقايْبكُمْ.

ويدايَ شبّاكانِ مفتوحانِ للقمرِ العتيقْ

وأنتِ واقفةٌ، كنَرْجسَتَيْنِ، بينهما.

ويمتدُّ الطريقْ

مثلَ أُغنيةٍ يبلِّلُها الندى.

أصغي لصمتِ اللهِ، أصطادُ الصدى

البرّيَّ من شلالِ صوتكِ،

حينَ يسقطُ فيَّ من ماضٍ سحيقْ.

وتجيءُ نحوي الأُغنيةْ:

سافرتو في ليلِةْ قَمَرْ..

بس آه.. آه.. آه.. لو طوّيتو قلبي في حقايبُكُم..

"رأيتكِ في جبالِ الشوكِ،

راعيةً بلا أغنامْ.." (محمود درويش)

وقد وصلتْ إلى رأسِ الجبلْ

ليلى. وكان القمرْ

يبدو بعيداً، مستديراً مثلَ خاتم خِطْبَةْ:

كلّما مدَّتْ يديها إليهِ ابتَعَدْ،

ويلمعُ خاتَمُ الياقوتِ في يدِها، وتوبةْ

كان يوماً قد وَعَدْ،

خفيةً سوفَ يأتيها، وتوبةُ...

أشعَلَتْ ناراً ومدّتْ إليها يديْها،

صوت ناي كانَ يأتي من بعيدٍ،

من مكانٍ ما، داخلَ الريفِ
وعرسٌ بالخيول وبالشموعِ، لعلَّه أعراسْ.
في قمَّةِ الجبلِ القريبِ يلفُّ كالمشبوهِ ضوءٌ كهربائيٌّ،
يفتِّشُ في الحدائقِ والشجرْ..
عادةً ما يدفنُ الجيشُ من يغتالهمْ،
في الليلِ، سرّاً، لا صلاةَ ولا طقوسَ ولا حضورَ، وعادةً
ما يخطفون الجُثَّةَ الحمراءَ من مستشفياتٍ جديدةْ،
شبابيكُها تبدو على تَلَّةِ الخوفِ كالدّيْرِ المضاءِ،
على أبوابِها
بقعُ الدماءِ،
وعادةً
ما يخطفون الشهيدَ إلى مشرحةْ
للجيشِ، منها يسرقونَ القلبَ، من يدري،
أو الرئتينِ، أو
شيئاً لمن يحتاجُ شيئاً من حصولِ المذبحةْ.
عادةً ما تُجَنُّ الكلابُ الشريدةْ.

عادةً ما تجنُّ وتنبحُ،

وتهربُ بين الحدائقِ أو في حروفِ القصيدةْ

كلّما شَمَّتْ سلاحاً في ليالٍ جارحة.

إنَّ قبراً داخل الأرضِ يخفي جثةً،

لكنَّ قبراً داخل الوعيِ يبعثها حيَّةً تسعى

باللونِ نفسِهِ،

والطعمِ، والرائحةْ.

وتخيّلَتْهُمُ عندما دلُّوهُ في الحفرةْ:

صدرُهُ كان موشوماً ببعضِ الإِبَرْ

ومخيَّطاً كالكيسِ، بين الشَّعْرِ شيءٌ كان يلمعُ،

مثلَ خيطٍ أو شعاعِ قمرْ..

هكذا أقفلوهُ وخيَّطوا صَدْرَهْ.

وَسَعَتْ بعيداً كي ترى

ماذا ترى في الظلِّ والأشواكِ كي تسعى؟

جَلَستْ بعيداً، تحتَ سرٍ غامضٍ،

وعلى حَجَرْ

عَصَرتْ رأسَها بيديها: دوارٌ داخل الوعيِ،

وأفعىً داخل المَعِدَة وتلْدغُ الأفعى.

إذنْ ماذا ترى في الظلِّ والأشواكِ كي تسعى؟

"يا صاحِ بالسجنِ، لا تجزعْ

فما عصفتْ

زوابعُ الليلِ، إلاّ وانجلى الأُفقُ.

والريحُ لو لم تهزِّ الوردَ ثائرةً

ما كان يغمرُ أرجاءَ الربى عَبَقُ

يا صاحِ بالسجنِ، إنَّ النورَ غايتُنا،

فكيف تجزعُ إنْ ما خيَّمَ الغَسَقُ؟

"إنَّ الفَراشَ يرى

في النورِ مصرَعَهُ

فيلثُمُ النارَ شوقاً

وهو يحترقُ"... (شاعرٌ مجهولٌ)

كنتُ من بينِ الصبايا أنا نهرَ الحليبِ، وأرضَ العسلْ

بيضاءَ كالقمرِ.

وأمضغُ حبَّ الزبيبِ، وألعبُ،

لا دمعي له هدفٌ ولا قلبي على حَجَرِ.

علَّمتني الصبايا النسيجَ،

وكيفَ أُرتِّبُ زهرَ الأُقحُوانْ

في شَعْرِ طفلٍ أو إناءْ

ثمَّ أحلمُ بالبحارِ، وملحِ البحارِ، وبُعْدِ السماءْ

أتعرَّى في المساءْ

وأطوفُ في بيتي، وتعشقني المرايا والشموعُ،

وقصَّةٌ أُخرى عن الحبِّ الذي بين الخيامْ

ساعةٌ مرَّتْ عليها، فجأةً رجَفَتْ

عندما شَعَرَتْ

بصر صورٍ شديد السوادِ يسأسئ لحناً،

ويمشي إليها. فمدَّتْ إليهِ يديْها

وهي تحبو على ركبتيها

والقمرْ

كان يسقطُ من شفتيها

على سنَّيَنِ فضِّيَّنِ: سأْسأْ... سأْ.. سأْ...

من أينَ جئتَ تقولُ؟

فوق جبينكَ الإنسيِّ وشمٌ أخضرُ الأحرفِ،

مثلَ بصمةِ راهبٍ

في كفِّهِ..

- إبَرُ الحنين.

- في حنينِكَ برتقالٌ أو بحيراتُ الغروبِ، وفي

غروبكَ ألفُ شيءٍ كالطيورِ،

وفي دروبِكَ ألفُ إمكانيَّةٍ،

وسريتَ بينَ غزالتينْ

واحرسي لي، تقولُ، احرسي لي ابيضاضَ غَزالةٍ

من عتمَتَيْنْ؛

من طلقةِ الصيَّادِ في وادي القمرْ

وتضاؤلِ الرؤيا أمامَ الغابتينْ؟

- ليلةٌ خضراءُ تحتلُّ السماءَ الخارجيّةَ والجبالَ،

فنامي،

يا طفلةً – حوريةً، يا طفلةً قمراً

وتشبه فضَّةً وسريرَ شوكِ.

إنَّ صوتاً مثل رائحةِ البرتقالِ،

وخطوةً مجروحةً

قادت تفاصيلي إليكِ.

ليلةٌ خضراءُ تحتلُّ السماءَ الخارجيّةَ والجبالَ،

فنامي.

(يهدرُ البحرُ – المحيطُ على مداخلِ قلبِها

في داخلِ الأحلامِ، تغرقُ في صدري هذا الهديرَ الواسعَ

المُترامي.

فَخذُها المكشوفُ تغسِلُهُ بُرودَةُ موجةْ

وتوبةْ

مثل بيتٍ مضيءٍ من خشبْ

يطفو على عمقِ المحيطِ، فمدَّتْ يديْها في تعبْ

ليعودَ توبةُ من رحيل الضوءِ في الموجة).

في خريفِ المشمشِ القمريِّ أمشي نحوَ بيتكِ،
في الندى القَدَمُ.
وبيتُكِ في التلالِ، بهِ يحيطُ البرتقالُ بهِ،
وحزنِيَ ينتهي، والثلجُ تَبْردُ تحتهُ القممُ.
قممٌ معرَّاةٌ بضوءِ النّجمِ تطفَحُ ؛ هل أُحبُّكِ؟
لستُ أدري!
قد قدمتُ إليكِ من بابِ الصداقةِ،
عبرَ زوبعةِ الرمادْ.
لم أعِدْكِ بقصَّةٍ أُخرى،
وغابَ صنوبرٍ في الشمسِ في وسطِ البلادْ.
ماذا أُفسِّرُ عند بابكِ،
غيرَ حبّيَ لانفتاحاتِ الفضاءْ؟

تذكَّرتُ –ليلى احذري سلطةَ الذاكرةْ–

بيتاً على جدرانه ظلُّ السِّراجِ،

شُحوبُ الدّخانْ

والفراشاتُ حولَ السِّراجِ كأرواح موتى

(تعودُ لتبحثَ عن شعلةٍ من حنانْ)

وبيضاءَ تلكَ الفراشاتُ كانت

وتَرْشَحُ صمتاً.

عجوزٌ أمامي تهذي وتمشي، على خَدِّها شامةٌ

قربَ وشمٍ داكنِ الاخضرارِ، وتهذي:

لننــسى مــا جــرى منَّــا ونرجُــع مــثلما كنَّــا

فــلا قلنــا ولا قــالوا ولا قــالوا ولا قلنــا

شعرتُ بخوفٍ،

كأنَّ الفراشاتِ تفهمُ معنى الكلامْ

فتأتي رفوفاً رفوفاً من البابِ أو ظُلْمةِ الآخرةْ.

والعجوز تتمتمُ شيئاً وتمشي،

وعتمُ الكونِ بحرٌ بلا ساحلٍ،

يمتدُّ في صوتها مثلَ تمتمةٍ عابرةْ.

ورأيتُ العجوزَ طويلةْ

ظِلُّها فوقَ الجدارِ يتمتمُ:

يا أُمَّنا الأرضَ،

لا تتركينا يتامى في الطريقِ الجميلةْ.

وقلتُ إلى ليلى أروحُ وأحملُ سِرَّ المقامْ.

... آه توبة، أهلاً...

كنتَ قد أهديتَ لي جُنْدُباً من ذهبْ

عيناه تشعّانِ بضوءٍ غامضِ الاخضرارِ،

كانَ يقفزُ بينَ جدائلِ شَعْرِي – قبل قليلٍ –،

ويرعى،

ولكن – سهوةً أو تعبْ –

سقط الجُنْدُبُ من شبّاكِ داري.

وبحثتُ قربَ النهرِ عنهُ، وبينَ القصبْ

أعمى عيونِيَ بحثيَ في

قمرٍ كاملِ الاستدارةِ والاحمرارِ.

فتذكّرتُ بغدادَ: كانت سبايا،

وكانت حُطامْ.

حنَوْتُ عليها، "حنانَيْكِ بغداد"،

قلتُ لها،

واشتباكُ النجومِ يشيرُ إليها،

"أنتِ من أحْببْتُ عاماً بعدَ عامْ".

وحَمَلْتها كالجُنْدِبِ الذهبيِّ في شَعْري،

وكانت تنتهي،

أشعلتْ دمعتي حزمةً من حطبْ

وأضاءت النيرانُ أطرافَ الكلامْ.

كلماتي مبعثرةٌ كالنجومْ

مُتَصلِّبَةٌ كالحَلَماتِ،

وناعمةٌ كالأفعى،

ومرتَّبةٌ مثلَ أوراق القمارْ.

كلماتِيَ ظلُّ مسافرٍ في صحراءْ

شبحٌ يلحقُ مجنوناً يخشى شَبَحهْ،

جدولٌ لا ينبعُ من وطنٍ أمْ

وطنٌ لمنْ لا وطنَ له،

حوريةٌ لمن لم يجدْ أُمّاً واقعيةْ

واقعٌ لمن فَقَدَ واقعهْ،

عدوَّة من لا أعداء لهْ،

خيانةٌ للمتوقعْ،

كلماتِيَ قوْقَعَتي،

كلماتي شرنقةْ،

حنينُ شيءٍ لما هو خارِجُهْ

فيضانُ الخارجِ نَحو داخلٍ تمَّتْ صياغَتُهْ،

كلماتِيَ لُعْبَةْ

وحصانُ ذهبْ

كلماتِيَ كذبةْ

كلماتي تعبْ

ونذرتِ شَعْرَكِ، كالصنوبرِ في هواءِ الصيفِ، لي.

ووعدتِ،

قلتِ: "بخُضْرَةِ عينيَّ أَدفِنُ يا حبيبي خوفَكْ

وبصَوْتِيَ البحريِّ والزَّبَدِ الذي

في صَوْتِيَ البحريِّ أَغسِلُ صَوْتَكْ ".

غنَّيتِ لي:

"شايِفِ الْبَحَرْ شو كْبيرْ

كِبْرِ الْبَحَرْ بَحِبَّكْ

شايِفِ السما شو بْعيده

بُعْدِ السَّما بَحِبَّكْ " (فيروز)

وكانت طيورُ البراري تطيرُ بعيداً،

وخضراءَ كانَت طيورُ البراري؛

أمدُّ يديَّ إليكِ...

وداعاً، أو سلاماً عليكِ..

وأبقى شارداً في بابِ داري.

ومشاعري شمسٌ على الغاباتِ، تجمعُها الصبايا،

أو تبعثرُها الطيورْ

وأنا أُحبُّكِ، آهِ، يا

معنى الجذورْ.

(وتوبةُ كان غروباً غريبَ الاخضرارِ،

وفيهِ مسافةٌ كالنارِ،

وفيه طريقٌ أزرقْ.

وتوبةُ كانَ بعيدَ المَنالْ

مثلَ منديلٍ،

"غريبانَ، إنَّ الجبالَ الجبالَ الجبالْ..." (محمود درويش)

وتوبةُ هذا الغروبُ الذي

خلفَ الجبالِ التي في ذِهنِها).

("رأيتك في جبال الشوك راعيةً

بلا أغنامْ.."

وفي الأحلامْ

يهدرُ البحرُ - المحيطُ على مداخِلِ قلبِها

في الليلِ يوحشُها خَلاءُ البحرِ،

هذا الخلاءُ الواسعُ المترامي.

كان توبةُ بحراً آخرَ لكن..

منهُ كانت مَوْجةٌ في بحرِها.)

- في القدسِ، تحت القُبَّةِ الذهبِ

لغةُ اللهِ فوق الجدارِ الهندسيِّ مُشَرَّبَةٌ بالأزرقِ،

والأسودِ، والخَمْرِيِّ في الميمِ والراءِ.

فإذا ما رأيتَ سماءً نِصْفَها أزرقَ والنّصفَ أسودَ،

والشمسَ حمراءَ كالحبرِ فيها.. هناك سمائي -

وبين الصنوبرِ والفَيءِ وزَقْزَقةِ العصافيرِ التي

لونُها كالتُّرابِ،

نسيتُ "كتاب الأغاني"

ونقشتُ على قبةِ جفنيَّ حروفَ التغيُّرِ والموْجِ،

وصحراءَ نجومٍ فوق قافلةِ الأَصْفهاني.

فإذا ما رأيت القدسَ مَيِّلْ

نحو تلك القبَّةِ - الذهبِ.

لغةُ الله فوق الجدارِ الهندسيِّ مُشَرَّبَةٌ
بالأصفَرِ النرجسيِّ،
وبين ابيضاضِ الحمائمِ في سِجَّادِها العَجَمِيِّ
وبين الأقواسِ الأُولى لليلِ الأخضرِ،
بينَ التُّفّاحِ وبينَ الذَّهبِ
صلبتْنِيَ عاشِقَةُ الهنْدَساتِ...
ما عليّ إذا ما
عُجتُ حول مُحَمَّدٍ، مقصديَ اللهُ، وما
للهِ شكلٌ كي أُفَصِّلَ باستيحائهِ شكلَ حياتي.
مَيِّلْ باللهِ عليكَ عليها،
يا طفلَ الموجِ، ويا درَجاتِ الليلَكْ.
وسلِّمْ عليها
وقَبِّلْ
هناكَ الترابَ،
وكَحِّلْ
بمَيْلِ الظلِّ عينيكَ، ومَرِّرْ على الماءِ صَدْرَكْ

وإذا ما سئلتَ

"أتلعبُ أم تتوضَّأْ؟"

قلْ: بالقلبِ أُلامِسُ أَصْلَ الأشياءِ لكي أبرأ.

تحتَ سماءٍ لستُ أَملِكها.

ولنا حزنُنا...

وابتساماتُنا حين تخفي فَقْدَنا..

يَصِلُ الحزنُ إلى مرحلةِ اللاتفسيرِ،

ويطفحُ منكَ كما يطفحُ الزيتُ عن حجرِ المعصرة.

تُزيحُ ترابَ الحياةِ وتربةَ الماضي

فتعثر فيها على هيكلٍ للطقوسِ القديمةِ أو مقبرةْ.

وكأَنكَ تعرف ما لا تعرفُ، والحزنُ هنا يفقدُ أسبابَهْ.

وتحبُّ امرأةً لا تعرفها،

أو تعرفُ أن لا وجه لها،

تحزنُ في دفقاتٍ، والحزنُ هنا لا بيتَ ولا بوَّابَةْ

وضَوْءُ المدينةِ في الليلِ،

يشبهُ تعبيرَ عيونٍ دقيقْ.

وشيئاً فشيئاً يُبيدُكَ شيءٌ لا يمدُّ يديْهِ إليكْ
وشيئاً فشيئاً يضيعُ الطريقْ
بقربِ الضواحي التي قربَ المحيطْ.

وترى التلفازَ، الجوعى والثلجَ، وتعبرُ
قربَ لقيطٍ به أَلقى إلى ليلِ الرصيفِ لقيطْ
والحزنُ يأتي منكَ أحياناً،
وأحياناً من الأشياءِ،
حُزْنٌ ليسَ منكَ عليْكَ،
وحزنٌ منكَ ليسَ عليكْ.
إليكَ يجيءُ الذي لستَ تملكهُ،
ثمَّ يرحلُ عنكَ الذي كان وهمُكَ أنَّكَ تملك أن تتوهَّمَهُ،
والحديقةُ ليلٌ وكلبانِ، إذنْ،
يا صاحبَ الوردِ لمن فيها توزِّعُ هذا الرحيقْ؟
هل لتخفي الدِّمَنْ؟
وعلى من تنحني

ولمن ينبني فيكَ النسيجُ

وتكتمُ عمَّنْ تُحب

النشيجْ؟

تهزُّ الرأسَ،

لا فرحاً ولا حُزْناً،

ولكن من قبيلِ الوداعِ لمنْ

لم تقابلْهُ، وهذي الحديقةُ ليلٌ وطينٌ،

فيا ضائعَ الخطوِ لمن تنْشُرُ فيها الشراعْ؟

ولمن تدفعُ هذا الثمنْ؟

مشيتَ طويلاً، ثلاثينَ عاماً،

ولمَّا انتبهتَ وجدتَ طريقَ الحياةِ ذراعْ

ليس يكفي لكي يقفَ الكلبُ فيهِ،

وأضواءُ النيونِ استباحتْ

نواحي الضواحي،

وهذي تبيعُ النهودَ مدهَّنةً بالعروقِ التي

كاد يحتلُّها الازرقاقُ،

وهذا يبيعُ المخدِّرَ في إبَرٍ من زجاجٍ

تُفَتِّحُ رملَ الصحارى في النخاعْ

وتمشي لا تحسُّ بشيءٍ،

لماذا أتيتَ، لماذا ذهبتَ، لماذا

تشتهي الارتفاعْ

فوق أنماطِ حياةٍ لم تَعُدْ نمطاً للحياةْ؟

ما كنتَ تعرفُ أنَّ المياهْ

تكفي لإغلاقِ فمْ!

وقلبكَ مثلُ الضِّفْدَعَةْ

تحتَ المطرْ

ويداكَ أُغنيةُ الشجرْ

أرأيتَ نهراً يسيرُ إلى منبَعِهْ؟

غير دَمِكَ بعد الموقِعَةْ؟

أرأيتَ رؤياً موجَعةْ

حتى اكتشفتَ بأنَّ الفرحْ

حاجةٌ لإلهْ؟

والضحكَ دمعتُنا الأخيرةْ؟

والحياةْ

كلعبةِ الشطرنجِ ماتَ الشاهْ

في الخطوةِ الأُولى وواصلتَ اللَّعِبْ؟

والقلبُ خطوتُنا الأخيرةْ؟

(ولتوبةَ مشيٌ بطيءٌ فوقَ سُطوحٍ مُشْمِسَةٍ،
وحفنةُ قَمْحٍ للحمامْ
وجفونٌ محمرَّةٌ بعد البكاءِ،
ووجهٌ مثل منديلٍ من الاخضرارِ لديهِ،
ولا يأتي السلامُ إليهِ لا يأتي السلامْ).

أراكَ في دفقةِ المَوْجِ الرماديِّ حَماماً حزيناً

يفتِّشُ بين الشواطئِ بحثاً عن سفينةِ نوحْ.

أراك تضمُّ الجناحَ

وتخفي بالغناءِ الجُروحْ.

أراكَ غريباً عن الأرضِ التي فيها تجيءُ وفيها تَروحْ

أراكَ على الوجهِ مزاجاً تعكَّرَ كالموْجِ أو مثلَ بسمةِ متعبٍ

بين البدايةِ والانتهاءْ.

وغداً تنمحي كالوشمِ من فوقِ الشفاهِ الجميلةِ،

أو تختفي كبقيَّةِ الحِنَّاءْ.

وغداً،

كالأرضِ المحروثةِ بالشمسِ،

تجفُّ شقوقاً شقوقاً،

وتَفْتَحُ صَدْرَكَ للابيضاضِ الذي في السماءْ

وغداً سوف تبكي

على حجرٍ واحدٍ

في جبالٍ كادَ يقتلُها الانحناءْ

وغداً مثلَ عباءةٍ سوداء تشلحُكَ النساءُ على الكراسي،

ومثلَ الغناءْ

بعد انتهاءِ العرسِ،

تبقى صدىً في داخلِ النَّفْسِ،

وتمشي قوافلُ أهلِكَ صبحاً لمصرَ،

وتبقى أنتَ وحدكَ في الوراءْ

فتخطو خطوةً نحوَ الجنوبِ،

وتخطو خطوةً نحوَ الشمالِ،

وتبحثُ عن كلماتِ الصباحِ لتلفِظَها للمساءْ.

ما كان عيشاً كي تقولَ: "انتهيتُ"، وما

كان عشقاً كي تقول: "انتهى".

أنتَ من كنتَ المُصلّي والمصلَّى له والإمامْ

فصبراً جميلاً لأنَّكَ..

صبراً جميلاً لعلَّكَ..

صبراً، أكادُ أُقبِّل طيناً مشيتَ عليهِ،

لأحملَ عنكَ الحذاءْ

أكاد أنزِلُ من وحيِ قلبِيَ آيات حبٍّ،

وأبعثُ نفسي

بنفسي نبيّاً إليكَ، لترفعَ جبهتكَ الصفراءَ من تَعَبِ النجْمِ

المضيءِ عليها...

وأمسحُ عنها عَرقاً مازجهُ الانتماءْ

بانخلاعِ الجذورِ من الأصلِ، ممزوجةً بالدماءْ

فصبراً جميلاً يا حبيبَ الأراضي.. والنساءْ.

جاءَ زمانٌ تحزنُ فيه!

وتقولُ: اللهُ! اللهُ! نطيعُ الرّمْلَ ونحتملُ التيهْ؛

خطواتِيَ تتركني أبحثُ عن رِجليّ

وأمرُّ غريباً أشحذُ في ليلِيَ

نيراناً من أبوابِ زمانٍ مرَّ عليّ.

وأُفتِّشُ في جيبيَ عن كفِّيّ

وأفقدُ ما يتعلَّق قلبِيَ به.

مالكَ في الأحلامِ تراقبُ شلالاتٍ باردةً تسقطُ

عن جبلٍ في قمرٍ؟

صوتُكَ هذا الماءُ وصمتُكَ، فيه سيرمى برمادِكَ

ملموماً في قنينةِ عِطْرْ

ورمادُكَ يفصلُ بينَ الظلمةِ والأفراحْ!

يا حلوُ، من دَلّكْ

على التفّاحْ؟

غافلتَ أهلكْ

وعبرتَ بين الخيمةِ الأُولى وبين الخيمةِ الأُخرى،

كأنكَ لا تميّزُ بين لذّاتٍ تباحُ وبين أرضٍ تستباحْ

وتحاورُ بين الرغبةِ والشوكةِ ليلكْ

ويحاولُ وردُكَ أن يبعثَ رائحةَ السرِّ إلى قلبِ الدليلْ

يا حلوُ، من دلّكْ على الدرب الأصيلْ؟

وكأنّي لما أغفو أتحرّكْ

حتى تنمو أنتَ على جسدي كالليلَكْ

تلتفُّ على فخذِيَ وتمتدُّ الخضرةُ والظلُّ المشمسُ فِيّ.

"قمرٌ على بعلبكْ

ودمٌ على بيروتْ

يا حلو من صبّكْ

فرساً من الياقوتْ؟

قُلْ لي: ومن كبَّكْ

نهرينِ في تابوتْ

يا ليتَ لي قلبكْ

لأموتَ حينَ أموت." (محمود درويش)

- لا توصليني للطريقِ المقمرةْ

يا ابنةَ عمي،

كلُّ مدلولٍ يسيرُ على طريقٍ للدليلْ

ولكلِّ فردٍ أن يصيغَ طريقَهْ.

لا توصليني للطريق المقمرةْ

والنايِ في فمِ حوريّةِ البحرِ – هذا قليلْ –

أوصليني للحقيقةْ

واتركيني صامتاً كجبالِ الجليلْ.

كانت الشلالاتُ سبعةْ

وأربعينَ، وتسقطُ في بركةٍ واحدةْ.

كان الأخيرُ نقياً، مزبداً،

فتبعتُهْ.

كانت الشلالاتُ سبعةْ

وأربعين، وتسقطُ في بركةٍ واحدة.

كانَ الأخيرُ يشابهُ قلبي

ولكن أضعتُهْ.

قدِمنا لنكسرَ بعضَ الأغاني، كحبَّةِ لوزٍ،

ونبحثُ فيها عن حَمامْ

وجدنا جنوداً صغاراً من حجرْ

يسكنون الكلامْ.

كنَّا نحاولُ فهمَ أُغنيتينِ؛

الجازُ كان لغيرنا

والصمتُ نحنُ، الماءُ كان لغيرِنا الغرباءُ نحنُ،

مللنا الأُغنيات جميعَها، معنىً وحرفاً.

كنَّا نحاولُ فكَّ أَلغازِ البلادِ، رَمَتْ بنا الألغازُ للمنفى.

وكنَّا شتاءً نحملُ الخزَّ إلى غَزَّةَ،

صرنا نشحدُ الحُبَّ منها شتاءً وصيفا.

والنبوءاتُ باءتْ بالفشلْ.

بعنا هنا الحنَّاءَ والتمرَ، وما كنَّا نحبُّ المالَ،

أحببنا الجُمَلْ.

حرَّكتنا حركاتُ النساءِ،

ارتعاشُ الوردةِ الصفراءِ في يدِ طفلةٍ،

نغماتُ لحنٍ ما،
بساطةُ خطوةٍ فوقَ الرصيفِ،
فَراشٌ حول ليلٍ بيَّنَتْهُ شموعٌ من قُبَلْ.
كنَّا نحبُ الحبَّ، أيضاً،
والقوافلَ، والشعيرْ
وانحناءَ احمرارِ الهلالِ على فتحةِ الناي الأخيرْ

وفي المرآةِ، في صبح يومٍ جميلٍ،
دبَّ في الشعرِ المشيبُ،
ومرَّ العمرُ،
لا أهلٌ لنا حتى نقولَ "نَحِنُّ إلى..." ولا وطنٌ لنا
حتى نقولَ "نجنُّ على.." وحتى
عندما سألوا القوافل: هل يضيعُ دليلُها في الرملِ؟
قال دليلُها:
"إنَّ الضياعَ هنا مُحْتَمَلْ".
سرنا على ما قدَّرَ اللهُ،

من حانٍ إلى خانٍ،

عبرنا تحتَ أمطارٍ على طرقِ المطارِ،

وفوقَ أحجارٍ عليها ضوءُ أقمارٍ على الوادي،

وقلنا: "الوصولُ إلى ما حَلمْنا بهِ

محتملْ".

كتبنا ما يمرُّ علينا في بلادٍ لا تحبُّ القراءات،

وقلنا: "ما العملْ؟

نمشي على ماقدَّرَ اللهُ"

حَمَلْنا ما يمرُّ علينا في بلادٍ لا عزاء لها أو لنا فيها،

وبعنا الأُغنيات لصحراءِ العربْ.

عبرنا فوق أطلالٍ على أطرافِ غاباتٍ بلا حَصْرٍ،

وقد نشِفَ الحطبْ

فيها وجفَّ الماءُ،

وماذا يهمُّ العابرينَ بلا خطى

من داخلِ السرِّ إلى داخلِ السرِّ إن كانَ وجهُ اللهِ يُكشفُ

كشفا؟

كنَّا نحاولُ فهم أغنيتين الصوتُ كان لغيرِنا

والصمتُ نحنُ،

مللنا الأُغنيات جميعَها،

معنىً وحرفا.

وفي المدنِ الغريبةِ كنَّا نشتري سِرْبَ الحمامْ

لنطلقهُ في الطريقِ الذي سوفَ نسلكهُ،

لم نجمع المالَ حتى نقول: "اغتنينا"،

ولم نملكِ الأرضَ، أو ندَّعي مُلْكها،

كي نقولَ "انتمينا" لأرضٍ أو بلدْ.

والحدودُ التي أوقفتنا عندها

كانت حدوداً يحدِّدُها غيرُنا، لا حدودُ لنا،

أو ليسَ يعني السفرْ

شيئاً لمن لا يستقرُّ، نَمُرُّ أو نقفُ...

وكنَّا نعشقُ الحاناتِ من ليلٍ إلى صبحٍ،

وخمرُ جمالِنا العلفُ.

ونغلي الشايَ تحتَ النجومِ على نارِ الغجرْ

وندخِّنُ الغليونَ،

أو نعزفُ النايَ ولا نفهمُ الفرقَ بين الحياةِ وبينَ الخطر،

ثمَّ صاحبُنا الذي ألقت بهِ في دربنا الصُّدَفُ

ومرَّ العمرُ، لم نندمْ على فعلٍ،

وما كنَّا نحبُّ النواحَ على قبرِ شيءٍ أو أحدْ.

نَجْرُعُ الخمرَ من الجرَّةِ إنْ جاءَ وقتُ الشرابِ،

ونلفظُ الكلمةَ من داخلِ القلبِ إن جاءَ وقتُ الكلامْ.

وكنَّا نحبُّ الشعرَ، بعضَ القديمِ وبعضَ الجديدْ،

ونضحكُ حينَ نصلِّي وراءَ الإمامْ.

واليومَ شَعْرِيَ شابَ يا ليلى،

وأرغبُ في السلامْ

وزهرةِ الذكرى، وخبزٍ ساخنٍ،

وأحسُّ طبعاً بالمللْ... أف...

مللٌ وقلبي طاحونةٌ من حجرْ

والذكرياتُ غناءٌ قديمْ

وذابَ التصاقُ القلبِ بالأشياءِ،

ما كانَ منها جميلاً وما كانَ منها ذميمْ.

لا شيءَ يحدثُ إلاّ إذا سمَّيتِ هذا السأمْ

حدثاً يصيرْ

وقلبي مثلُ المغنِّي الذي

قلبُهُ لا يفرِّق بينَ الورودِ وبينَ الحَصيرْ

يقظاتٌ تشبهُ النومَ،

في مدنٍ تشبهُ اليقظةْ

مطرٌ يشبهُ الخِصْبَ في لحظةٍ كالندمْ

عندما أغفو

على مقعدٍ قربَ جمرٍ أخيرْ
والكتابةُ توحي بالعدمْ.

حولي من البوليسِ ما حولي: جهازُ تنصُّتٍ
أو ربَّما تصويرْ
وخلفَ البابِ قطٌّ ما، وبعضُ قمامةٍ،
ودعايتان لأتفهِ الأفلامِ يا ليلى
ويحزنني الليلةَ يا ليلى الجوُّ يحزنني
هذا المطرْ
خلفَ الشبابيكِ، هذا الاخضرارُ المملُّ الذي
لم أعدْ فيه أميِّزُ بين الغزالِ وبينَ الحجر.
الجوُّ يحزنني البردُ في الأشياءِ والكلماتِ والبسماتِ أخبارُ
الجرائم،
صرت أَلينَ من ضفدعةْ
من كثرةِ العشبِ والماءِ والشوقِ للشمسِ في العام الأخيرْ
قلبي السعيدُ الذي

لا يحبُّ السجائرَ يحزنني.. القهوةُ السوداءُ

تحزنني

صاحبُ البيت الذي

يأتي بفاتورةٍ مبلولةٍ بالمطرْ

ثمَّ يهتزُّ كالقطِّ المبلَّلِ في البابِ، يطلُب أُجرةَ شهرين أو

سوف يدعو لنا البوليسَ حتى يحوِّلنا عبرةً عبرَ البلادِ التي

لا تستفيدُ من العبرْ.

(لم يكن توبةُ يملكُ أرضاً - يقالُ: الصبحُ لهْ -

لم يكنْ يملكُ قبراً - يقال: الموتُ، مثل الريحِ، يسكنُ منزِلَهْ -

لم يكنْ يملكُ حتى قنبلةْ

ليصفِّي الحسابَ، ولم يكُ، أيضاً، قُبَّرةْ

ليطيرَ، ولا موجةً ليصيرَ، ولم يكُ توبةُ ربّاً

ليغفرَ ما ارتكبتهُ اللحظةُ - المَزْبلةْ)

شنقوهُ على تينةٍ في ليلةٍ في حبلةٍ مُحكَمَةْ.

تركوا في فمهِ طلقتينْ:

طلقةً في مَحَلِّ الرغيفِ،

وأُخرى في مَحَلِّ الكلمةْ.

ولهذا يتوارى في صباحٍ لا يصلْ

مثلَ وشوشةِ البرتقالِ لأقمارِ ماءْ

قل إنَّ توبةَ من علاماتِ الطريقِ،

ولا إرث لهُ،

(فالأرضُ للهِ يورثُها من يشاءُ) وتوبةُ... إنَّ الكشفَ لهْ

هو يورثهُ من يشاءُ، فطوبى

لمن كان خيطاً لمن

يغزلُ قمصانَ صوفٍ لمن

يعبرونَ الجليدَ إلى

الإنسانية المُقْبِلَةْ.

طوبى لمن يرِث الكشفَ وتوبة طوبى لمن قَبّلهْ

طوبى لمن علَّم القلبَ احتمالَ السكاكينِ، ومن

طحنتهُ التجربةْ

كالقمحِ حتى صار خبزاً، وطوبى لمن

كادَ يكتشفُ الوردَ في المزبلةْ

فاروِي كلَّ التفاصيلِ يا ليلى... قفي،

عجوزاً غضَّةَ الوجهِ، مجهولةً بين الحقولِ، يداكِ فوقَ عصاكِ

يا ليلى قفي...

واروِي كلَّ التفاصيلِ ولمَّا

ينخرُ الدودُ العصا

تمشي إليكِ السُّنْبُلَةْ

قولي: "النجومُ البعيدةُ توبةُ هذي النجومْ

ليلى وتوبةْ!..."

تعقيب

يقالُ بأنَّ توبةَ قالْ:

تجرفني رغبتي في الحياةْ.

في كلِّ عرقٍ لزيتونةٍ غرزوا

قطعةً من لحمِ فخذي ووجهي بدبُّوسِ فضَّةٍ

أو بخيطِ حديدٍ،

وعلى كلِّ موجةٍ أو حجرٍ رشقةٌ من دمايْ.

وعلى حائطِ المبكى
تُرِكْتُ كبَصْمَةٍ بالحبرِ الأخضرِ أو دمعةٍ،
وعلى أرجلِ أُنثىً عاريةٍ تعزقُ في الحقلِ قمحاً وشمساً
سأشهقُ مثلَ عشبةٍ فاجأتها قطرةٌ من ندى.
تجرفني رغبتي في لمِّ نفسيَ مرَّةً أُخرى،
بعد أن صارتْ سدى.
وعلى حجرٍ أسودٍ في أرضِ مكَّة قد
ختمت ختمَهما شفتايْ.
وفي دفقة حزنٍ شاملٍ تحت القمرِ المستديرِ سأصعدُ،
من فتحةِ نايْ
وأمشي بقرب الإلهْ
واحداً وموحَّداً مرَّةً أُخرى.

في جبالٍ مقمرةٍ تعبر أيامي

غزلاناً رماديّةً تتقافزُ مثل الصدى

وتغيبُ،

وفي فنجانٍ قهوةٍ سوداء حيناً أحسُّ بنفسيَ،

أو في صوتِ مفتاحٍ وقفلٍ ورائيَ عند المنامِ،

وحيناً تفيضُ العظمةْ

لَمّا تدور طريقُ التبانِ على محورها،

وفي الشبّاكِ أبقى واقفاً

مثلَ رمحٍ على رأسِهِ جمجمةْ.

وبلا لذَةٍ يا جسدي

وأُصفّرُ من تعبٍ أو ربَّما ضاقت بما مَلَكَتْ يدي.

والآن تجمعُني رغبتي

في سحب نفسي مرَّةً أُخرى

فقد سالت بعيداً كالمياهْ

أو وزّعتْ في الكون كالشبكةْ

أوّلها في يدي،

لكنَّ ما منها تبقّى لا أراه.

أرغبُ في لَمِّها مرّةً أُخرى
على كتفيَّ كسعفةِ نخلةٍ، أو حملِها
مثل أُنثىَ حملتنيَ في بطنِها
قبل أن أُنفى إلى برِّ الحياةْ.

وعلى سطح بيتٍ قديمٍ،
حيثُ تشتبكُ النجومُ،
أدورُ كالنَّمِرِ المتوحِّشِ جيئةً وذهاباً.
وفي طرقِ المدينةِ
حيثُ الأَضواءُ الصفراءُ المهجورةُ تُصطادُ
النمورُ الصغيرةُ،
أعوي،
وتعوي رغبتي في الانتقامِ
أعضُّ السجنَ قفلاً وأسلاكاً وباباً.

والآن تجمعُني رغبتي في مدِّ نفسي حريراً ناعمَ الزرقةِ فوقَ

طريقٍ يسيرُ عليهِ سوايْ

"وردٌ أقل"،

كلُّ ما أطمحُ له.

خلفيَ أسحبُ الماضي؛

حصاناً أخضرَ الظِّلِّ على طريقٍ مقمرة

ندمي جرسْ

يهتزُّ في عُنُقِ الحصانِ

ولا إله ولا مغفرةْ.

وأسيرُ في الأشواكِ كالأعمى وحزني عصايْ

كلُّ شيءٍ عبثْ

في داخل المنفى، عبثْ

حتى سمايْ

وطريقي مشتْ قبلي عليهِ ملايينُ الجثثْ

مثلي،

وتنكرُ أفعالي يدايْ

والليلُ يتركني لأُكمل بيتَ شِعرٍ آخرْ...

- وأنتَ فتايْ
ومعاً سنخلقُ محوراً آخرْ
لتحرِّكِ الأشياءِ في المنفى..
إذنْ فاسمعْ غنايْ: ليلى وتوبةْ...

- انتهت -

تُوجدُ ألفاظٌ
أوحشُ من هذه

"بسّ الوفا عالحُرّ"

إلى من علَّمني قوانينَ الشعرِ العربيّ

الأستاذ إسماعيل كامل.

سفر

عجبٌ أمرُنا ومرورُنا

في أرضِ نخلةَ: يسمُنُ من يسمنُ

من أكلِ شحمٍ في شواءٍ

على "سفُّودِ جنٍّ" نارهُ عدمٌ كائنُ

في روحِنا، حينما ضاعَ ممكِنُنا

"والذي سوفَ يأتي ذهبْ".

عبثٌ بحْثنا عن عنبٍ تحتَ أشجارِ "دَوْمٍ"[1] هنا قمرٌ خائنُ

فوق أغنامِ غولٍ نايهُ خشبٌ مبهَمُ

كلَّما زرنا بيوتاً تسكنها كائناتٌ نصفُها أعينُ

قال سيدُنا- الدليلُ، لنا: مَنْ هنَّ، أو هو، أو مَنْ همُ؟

ورأينا راعياً أسودَ كلَّ قلائدِهِ من ذهبْ

طيبَ الضحكةِ، حجمُهُ قزمُ.

قال: "أنا وجبةُ الغيلانِ على نارِ العشاءِ". عجيبُ؛

حارسٌ جمَّدتهُ النجومُ على برج سورٍ قربهُ

شاعرٌ يعلكُ الفقعَ ويرعى

بقرَ الوحشِ، ويعلكهُ السأمُ

في جبلٍ من أرضِ نخلةَ يُسمَعُ للجنِّ في

أطرافهِ زجلٌ عجيبُ

أيُّها الذئبُ - النصيبُ أنا أنتَ

أم أنتَ أنا اثنانِ غريبانِ، "كلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ"

في أرضِ نخلةَ، أرضٌ تداركها اللهْ،

هلالٌ تائهٌ بين نخلٍ من رخامٍ أصفرَ

حولَ قصرٍ،

نسوةُ الجنِّ- الجمالُ غريبُ-

كنَّ يغسلنَ في حمّامهنَّ، بنورٍ أخضرَ

فاضَ من مصباحهنَّ، نهودَهنَّ، فيرفعنَ

للنخل بيتاً تمايلَ من ظلهنَّ على

بعضهنَّ، وينكرنهُ

حينَ يرمقنَ هلالاً بانَ عن بابهنَّ،

فيكسرنهُ

يرتبكنَ كأنهنّ متاهةٌ- موجةٌ- حُلُمُ.

لم يُصدِّقْ عينهُ ملحدٌ أو مسلمُ

في أرض نخلةَ،

عُجنا على خانِها، ليلاً، وجدنا الذي خانَها

ينسج ثوباً أسود؛

في حجرهِ كوكبٌ يبكي كقطٍّ أبيض قربهُ
بهلوانٌ برتقاليُّ الحواجبِ ؛
بعضُ جمالٍ على شاطئ البحرِ، قشٌّ، سكارى، وتجارُ
بُخارى،
شلَّةٌ من أمّةٍ قد تداركها اللهُ..
يحكمها السوقُ والسوقيُّ والمتسلِّقُ
عجزاً على نفسه، وعلى غيرهِ
الروحُ لم تعدْ الروح ساقطةً،
أو فظَّةً، أو فِضَّةً، صارت تلوحُ
رخيصةً وتغيبُ
في أرض نخلةَ، أرض تداركها اللهْ.

شاطئها مقمرٌ، فاسترحنا على تلَّةٍ كلُّها شفقٌ محزنُ
جاءت بخمرتها أمَةٌ تتقنُ الحلبَ والصرَّ،
ومضغَ الكلامِ، ويتبعها إمّعَةْ
برتقاليُّ الحواجبِ والثوبِ، يتبعهُ حرسٌ

أبيضُ، أوجهٌ- أقنعةْ

مثل "عيدِ المساخرِ"، مرت جارياتٌ

عاريات قاصراتُ الطرفِ،

عِينٌ، مثل سربِ مَهَا.

بينهنَّ أميرٌ على عِجلٍ من ذهبْ،

أمرَ البحرَ بأن يتموَّجَ، ثم نهى.

لم يصدِّق عينهُ عابدٌ للنارِ أو كافرٌ بالكلِّ أو

جاهلٌ ربُّهُ صنمُ

في أرضِ نخلةَ، أرضٌ تداركها اللهْ...

يوجعُ النيلُ؛ موسى تلفّعُهُ فرعونةُ مصرَ بزنّارها،
يسبحُ الموجُ بهِ، والطميُ، والقمرُ المستديرُ
على ضفةٍ من قصبْ
يوجع النيلُ؛ لا نحن منهُ، ولا هوَ منا،
ونبعُدُ عنه، ويبعُدُ عنا،
بماذا نحسُّ إذا ما اقتربْ؟

فقدنا الكثيرَ؛ نساءً، وأرضاً، وذكرىً،
وأصحابَ عمرٍ، وحاناتِ منفى،
ونسمع في ضفةِ النيلِ هذا الغناءَ الخفيَّ،
أترجعُنا روحُنا في النهايةِ نحو الطربْ؟

صرتُ قديساً؛ أبارك ما منحتهُ الحياة

لغيرِيَ، ما

حرمتنِيَ منهُ،

وأحتاج لله، وحدِيَ، كي

أصلَ السودانَ، على فرسٍ من تعبْ.

وسأمتُ القداسةَ؛

ورداً صرتُ في الريحِ، أطلُّ على قمرٍ في آخر العمرِ،

فتنعفني الريحُ، أو

تعبر فيَّ كما في الناي يعبر لحنٌ

قديمٌ بغير فمٍ أو نَفَسْ،

ثمَّ في عتمةِ القلبِ أبصرتُ ناراً، قلتُ:

آتيها تضيء عليّ متاهاتي، فأرعبني

شمولِيَ، سامحني اللهُ،

إن منها أخذتُ القبَسْ.

يوجعُ النيلُ؛ إلى أرزِ لبنان يحمل نعشِيَ،

تحت هواءِ الصنوبرِ في "بنتِ جُبَيْل" سيتركني

هذا الرحيلُ، يسامحني اللهُ: لا أبَ، لا أختَ،

لا طفلَ، لا حبَّ، لا أرضَ،

ولا وجعَ الآن فيَّ، ولا فيَّ، أيضاً، غضبْ.

أمرُّ على الأرض كأنّيَ لست معنِيّاً إذا ما

مررتُ بأن أدافعَ عن قطعةِ الأرض التي

أوجد فيها، أمرُّ على الأرض حتى

أودِّعَها،

من عليها وفيها

وجئتُ غريباً إليها، ومن كوكبٍ آخر، جئتُ

أودِّعُ، منذهلاً بالشوارعِ والناسِ،

وأذهبُ أيبسَ من قطعةٍ من خشبْ.

يوجعُ النيلُ،

يوجعُ جداً، ويوجع، يوجع جداً،

دعيني أجاري الضفافَ، الضفافَ. إلى

لا جهاتٍ أروحُ، أروحُ.

دعيني، يوجعُ النيل، يوجعُ جداً، أقصدُ النيلَ،

جداً دعيني

يوجعُ موجُ، ويوجعُ عمْرٌ، فقط يوجعُ

النيلُ، دعيني،

لكم دين ولي ديني،

دعيني.

أروح إلى أودية الصخرةِ الحمراءِ في الصحراءِ؛

أحذفُ نفسيَ عن صخرةٍ فيها، وأحذفُ

ما مَرّ فيَّ، وفوقيَ، ما مَرّ قبليَ، بعديَ، حوليَ،

ما مر عليَّ، وما

مرَّ فيَّ ولكن ليس منيَ، ما ظلَّ مما قلَّ

من أملٍ لديَّ،

يسامحكِ اللهُ، دعيني،

يوجع النيلُ جداً، دعيني النيلُ يجري هادئاً،

شهوةً أو تعبْ

وتغيَّرتِ الغاباتُ حوليَ مثلما يتغيَّرُ الكلُّ،

دعيني، يوجع النيلُ جداً، بدون سببْ.

لا تلمسي ناقتي، لا تلمسيها ناقتي، لا

تلمسي الكلماتِ التي سوف ألفظها ولا

لا تذكري وجهي، ولا ملمحي لا

تذكريهِ، ولا

تلمسي شَعْري ولا شِعْري ولا زوّادَتي،

لا تلمسي الماءَ الذي في القِرَبْ!

يوجع النيلُ جداً دعيهِ، ابدئي العيشَ، ابدئي غيرَ هذا

العُمُرِ ابدئيهِ بدوني،

دعيني، دعيهِ، دعي النيلَ، يوجعُ جداً،

إلهي، إلهي، إلهي!

إلهَ الفراغِ - الكلامِ، الفراغِ الذي في الكلامِ،

الكلامِ الذي في الفراغِ،

إلهَ السرِّ في الابتداءِ، السرِّ في الانتهاءِ، إلهَ السماءِ،

إلهي!

يوجعُ النيلُ جداً يوجعُ النيلُ، موسى

تلفّعُهُ فرعونة مصر بزِنّارِها!

كم قلتُ ظَلي لديّ!!

كم كنتِ لي، حيناً، وحيناً عليَّ، وغرّبتكِ الذكرياتُ

وقطاراتُ نصفِ الليلِ في روحي،

وأنهارٌ بلا ماءٍ، يطاردها الشتاتُ

كم قلتُ: ظَلي لديَّ لقد خطفتنِيَ

المنحنياتُ -الحياةُ التهامُ

تنحنينَ، كتمثالٍ على الماءِ تآكلَ من

لحظةِ الشمسِ،

وينزل فوق جبينهِ الحجريِّ الحَمامُ

وينزلُ سيفُ ذكرىً غامضٌ في ظهرهِ،

وينامُ من تعبٍ، ويوقظهُ الكلامُ.

من مذكرات زنجي

وقفتُ على درجِ القصرِ في حُلْمها،
"عيناكِ دمعةُ حبٍّ من بلادٍ قديمةْ"

قلتُ لها: "جئتُ مدعوّاً إلى عينيكِ، لا أهلي ولا
سكني هنا. لكن
مررتُ غريبَ الخطوِ واللفتاتِ، على
بوابةِ الأشياءِ والمدنِ...
لكي أدعو المنافِيَ في
عيونِكِ أوّلَ الوطنِ...

وشَعريَ في الندى متجمّدٌ كالوردِ، قلتُ
لها، والحدودُ التي أوقفتني، أوقفتني

فعبرتُ الليلَ في مستنقعاتِ القصبْ،

عندها،

وتعلَّقْتُ بحَبْلِ السرِّ بين الماء والسفنِ.

في الطريق سمعتُ أنَّ "الزِّنْجَ" قد فشلوا

فمن نزلوا العمق البحر قد غرقوا، ومن

صعدوا لسطح الماءِ لم يصلوا!

قلتُ: عبداً ببغدادَ كنتُ، أمثِّلُ في مسرحٍ للظلِّ،

مالكتي دميةٌ،

ورأيتُ الحضورَ دُمى...

وإذاً، هكذا، يا حبيبةَ مُهرٍ كسيرْ!

نقطع الوحلَ بين الأُغنيةْ

في مركزِ الروحِ، والمنفى.

وفي مسرحِ الظلِّ أحضرُ بين طقوسِ الغيابِ،

وأحتقر النَّفَس الحيَّ فيّ.

ولما أُهرّجُ أسمعُ صوت الغناءِ الخفيَّ، ولكن

... تَبهرُ التقنيةْ

في قاعةِ المسرحِ الرسميّ!

أوّلُ الرقصِ "حَنْجَلَةٌ"، وغَداً تبدأ التصفيةْ؟

وهربتُ إلى سوقِ عبيدٍ بمصرَ، اشترتني غانيةْ

من بلادِ الفرسِ. قلتُ: الطريقُ بلا قمرٍ وأشمُّ هنا مذبحةْ!

قالت: "تعشَّ فإن عاهدتَني لا تخونني،

نكن مثلَ من، يا ذئبُ،

يصطحبان" اشتريتكَ كي

أحوِّلَ هذا التوحشَ فيكَ إلى مروحةْ

صيفاً تزيح العطورَ إليّ.

كنتُ كمن فرَّ من بين الضباعِ إلى مسرحٍ للدُّمى،

والمسرحةْ

تقضي عليَّ، سجدتُ إليّ.

قالت: تهرِّجُ؟ قلتُ: "أُهَرْجُ نفْسيَ مثل المِمْلحةْ

كي أضيفَ إلى الأشياءِ طعماً جديداً،

ولكن الحَمامَ الذبيحَ يشيرُ إليك

ويبكي عليّ".

.. قمرٌ أزرقْ

فوق خطوةِ مهرتي- وأنا في الأوديةْ

هاربٌ- بعد عام..

... خمَّارتانِ مضاءتانِ. ووجهي في يديها برتقالةْ

في الثلوجِ. وتبكي الروحُ فيَّ أنا المغلقْ

مثل مثلّثِ أرخميديٍّ

وحُرٌّ مثل خطٍّ مستقيمْ.

"شتاءٌ قاسٍ آخرُ. من أنتِ؟"، سألتُ،

وكان السؤالُ سراجاً معلّق

في سقفِ الحانةِ. "شَعركِ ضمة زنبقْ.

من أنتِ؟"

قالت: "بحيرةْ

خانني من خانْ.

والريح مُرّةْ

والكلام دخانْ".

وما دَخْلُ قلبي بهذا المكانِ، سألتكِ، ما

دخْل قلبي بهذا المكانْ؟

" اشربْ الآنَ خمرةْ!

هل أحبتكَ النساءُ؟"

أحببتُ لكن لم أُحَبْ.

" كيف كسَّركَ الهواءُ ؟"

أُحبِبتُ لكن... لم أحِب.

"وأضعت عمرك؟ من سوق عبيد بمصرَ إلى حانة في
أصفهان؟"

وما دخلُ قلبي بهذا الزمانِ، سألتكِ، ما
دخلُ قلبي بهذا الزمان؟

...قمرٌ أزرقْ.
جفلَتْ بي مُهرتي الشهباءُ خارج سور المدينةِ،
تفلتُ حولي ضباعٌ تلِفُّ على الثلجِ،
أفلتُ حولكِ مثل الضباعِ،
وعيناكِ ثلجُ..

وعلى ذلك الثلجِ في عينيكِ تفلتُ تلك الضباعِ.. وبيتي
بقاياي- عيناكِ-،
أحمل بين يديَّ بقاياي إلى
كعبةِ الدفءِ في عينيكِ أصلِّي لأنجو أطوفُ لأنجو

وعيناك ثلجُ..

وهذا شعاعُ قمرْ

أمام رُموشِكِ، مثل المِقصِّ، يروحُ

ويأتي.

في فضاء عابرٍ من فضاءاتِ صمتي!

عن هاجس

تبعتُ رنينَ أجراسٍ على ضفةِ النهرِ الذي يخشى الأسدَ
المنحوتَ من حجرٍ
على بوابةِ المعبدِ الأصفرِ،
لما ينبتُ
القمحُ القمريُّ على قرميدهِ الأحمرِ، قالت
قامةٌ مثل ظلِّ الغيبِ لي:
امزجِ البرتقاليّ في خلفيةِ الأشياءِ بالشفةِ
الزرقاءِ، كي تلفظ الأخضرَ الفاتحَ في ذكرى امرأةٍ
تغمزُ قربَ النبعِ الموجةَ في موسيقى الله.

عاريةٌ، فوق سُرَّتِها تنِّينانَ يقتتلانِ في البحثِ عن زنبقةٍ
مغلقةِ الشفتينِ

امرأةٌ من صَدَفٍ أو صُدَفٍ، تلكَ، أخيرةْ...

من نوعها!

أوغلتُ في توليفةٍ بين نارٍ باردةْ

نارِ الرؤى والرعاةْ

حيناً، وبين الكلامِ وبين الشفاهْ

حيناً، وبين إناثٍ يستحلنَ إلى شهوةٍ تستحيلُ

إلى صدمةٍ أو غروبٍ يستحيلُ

إلى حدسٍ بالمتاهةِ والبحثِ عمَّا يستحيلُ

ثباتهُ والحفاظُ عليهْ.

فقالت قامةُ الغيبِ: طُفْ حيث شئتَ، فأنت بينَ

الحدسِ النهريِّ ترى

جنتَّينِ وناراً، ومصبَّ الأنهارِ. فطُفْ ترَ

ما تريد العصافيرُ التي تستحمُّ..

بفيء الترابِ، وخيلٌ تستجمُّ..

بين فيْءِ النمورِ وميتةِ فرسانِها...

في الظهيرةْ.

بوركتَ من سفرٍ بين العيونِ وبين القناعِ من قدرٍ لوحظتَ

وجهاً- لوحةً

بالفحمِ يأملُ أو يتأمَّلُ تمثالاً لرودانَ[1]

لوحظتَ، أو جَملاً يعلك الشوكَ وتعلكهُ الجُمَلُ

لوحظتَ تخسرُ، حيناً، وتكبرُ، يوماً، وتسهرُ

، بين الحطامِ الجديدِ، وتنضجُ،

دوماً، وتذكرُ:

كفّاكَ قارورةُ عطرٍ قديمٍ، ووجهكَ قاربٌ فذٌّ، ويبحرُ،

بحرُهُ: تتكَرَّرُ الأشياءُ.. وأرجاؤهُ المستقبلُ.

فاستدرتَ إلى خاتمٍ- حجرٍ حُفرتْ خريطةُ

الكون عليهِ، عليك الدورُ لتلعبَ

لعبتهُ كي تصيرَ عليهْ

حفراً آخرَ، بوركتَ، منتحراً كنتَ، أم

في غاية الحكمةِ تسألُ، أو تنقصُ،

مثل هلالٍ، أو تكتملُ

مثل صليبٍ من خشبٍ من شجرٍ يكسرهُ البرقُ أو يحتملُ...

لكَ رؤياكَ وحلمكَ؛

قاتلتَ على مصدرٍ للمياهْ

- شربَ الكلُّ، نصيبُك قطرةْ-

"وعقدْتَ عقائد في الإلهْ[١]

واستكنتَ لحفرةْ

في بابِ جنتكَ الصغيرةْ.

من كتاباتِ الجنّ فيّ

سلَّمٌ من طموحٍ أم حجرْ

هذا الزحامُ من النقوش على خاتَمِكِ اللؤلئيِّ افتتاحيةٌ
للطقوسِ القديمةِ، أم دعوةٌ لنمورٍ مرقطةٍ تعشقُ الاقتناصَ
أم النمورُ
رسومٌ؟ لِمَنْ
كلُّ هذا المنظر الوحشيِّ، يا بنتَ أُمِّي، وممَّنْ
أحسُّ بهذا الخطرْ؟

أكملي العزفَ، البحرُ أحمرُ والموج مقمرُ، لا قرارَ لهُ،
فالقرارُ لنا أن
نكملَ العزفَ أو

ننحني كغزالٍ يأكلُ العشبَ، ونقطع بالشفتين الوترْ.

فجأةً، يا بنتَ أُمِّي، أخافُ (لنا زمنان مختلفانِ) الغربةَ!

هذه لغةٌ بها

"لبَسَ الثلوجُ بها عليَّ مسالكي

فكأنَّها ببياضها سوداءُ"[1]

مليحٌ ، إذاً،

يا بنت أُمِّي.

نسيرُ إلى أَحرفٍ سطَّرتها الجنُّ فوقَ قبابٍ من نحاسٍ في

غروبٍ شاملٍ،

أفتحُ مثلَ الكتابِ المقدَّسِ وجهِيَ،

أتلو لأحلو

من سورةِ النملِ والماءِ الحُلُميِّ والنرجسِ فيَّ،

وأحلو لأخطو

على صخرةِ الصمتِ الأبيضِ، عندَ رجوع الأساطيلِ

القديمةِ،

أخطو لأعلو

نحو بابكِ من أجلِ مفتاحِ خلقٍ جديدٍ أو سفرْ.

فارسمي وجهي على خزفِ الأواني، اقطعي رأسي احمليهِ

على صَوانٍ من القشِّ محمولةٍ بيد القيانِ إلى قمرٍ أحمر

يرجفُ مثلَ بركةِ ماءٍ أو وترْ

من كهرباءِ الروحِ لمَّا

كان خصري مكاناً للزنبقِ الأبيضِ لمَّا

كان مُلْكَ يديّ.

زمِّليني يا خديجةْ!

فالمتاهاتُ فيّ

قد تؤدي لنتيجةْ!

المأدبةُ على السطحْ

وكان هذا في الجنوبْ - .

لم أستطعْ الكلامَ بحرَّيةِ الأرضِ

الربيعيةِ ، من حيث جاؤوا، ولذا

أصغيتْ.

قال صوتْ

مثل موسيقى النبيِّ: "رولى، تلكَ، كانت فَراشْ".

قال صوتْ

من قبيل الاحترازِ، لها، من قبيل الاحترازْ...

صوتها لا يُقلَّدْ

كلنُّا كانَ صداهُ النشازْ.

والروحُ رحبةْ

في الجنوبِ، وبين الزهورِ وبين الخشبِ اختاروا لي مكاناً

من رولى، تلك، كانت فَراشْ.

فادخلِ الآن في الجِدّ:
توجد ألفاظٌ أوحشُ من هذه...

توجدُ ألفاظٌ أو
وَحْشٌ من هذه.
وأنا قاربٌ في لحظةِ الشمسِ والزبدِ الأبعدْ
أسأتُ قراءة زرقةِ الموج الدقيقْ.

حذفٌ من الضوءِ في جيلٍ غير محتملْ ...

ذئبة تنهش الكفَّ، الكفُّ عنها عند بابِ الكهفِ،
كيفَ الكفّ؟

ممنوعةٌ أنتِ، يا بنت أميَ، يا صاحبةَ الثوبِ المقمرِ
، ممعنةٌ في سفرٍ خطرٍ.
قلتِ كلاماً مثلَ فَراشٍ حول سراجٍ، قلتِ:

"فليذهبِ العالم للذئبةِ حتى أنامَ،

وأكرهُ جدّاً أبي!"

وألمَّ بي هذا الكلامُ ألمّ بي.

وسَرتْ في جلدي كهرباء الغيبوبةِ، والخصاءِ

فواجهتْ...

وبنو أبي

منعوا عنِّي ريادةَ الماءِ انحنيتْ

نحو الأوحشِ.

والخطوةُ في بحرٍ حلميٍّ ترفعُ فيَّ بصيرة في جُمَلِ

كم كنتِ ناعمةً، شبه لي، شبه نائمةٍ، قلتِ:

"ومن أين سأعرفُ هذا الذي

أجهلُ الآن هذا الذي أسألُ من أين عنهُ؟".

فلا تسألي!

غنِّي، أي خبئيني في غناءْ
عنِّي وعنك تخلَّت سماءْ
سلَّمتنا للقطط التي تأكلُ فينا الطفوليَّ فدافعتْ
عنك وعنِّي فغنِّي في أوَّلِ البيتِ، البيتِ - الكهفْ
- الشتائيِّ، عن أولِ النارِ التي باركتْ جسماً يخِفّ
ويتقنُ اللعبة بالخنجرِ الفضةِ
والامتناعاتِ عن...

غنّي! كم فتشتُ عن عودةٍ للوراءْ
فانتهيتْ.
غنّي أي علِّقينِيَ كالحَمَلِ
بين ضبعٍ وضبعٍ وانهشي ما تبقَّى فوقَ الشجرةْ
لكن بلحنينٍ ودفٍّ ودنٍّ
كي تكبرَ الحشرةْ
التي سوفَ توقظنا.

قلتِ: قرأتْ

فْرويْدْ.

لماذا افترضتْ

جهلي بماركسْ؟

سجَّلتُ ما سجَّلتْ

من هذا الحوار - الفتحةْ.

خبئِينيَ في جوفِ ضَمَّةْ.

أتعبني ما أتعبني: الضوءُ المحذوفْ...

كانوا قديماً يحذفونَ المرايا من أمام

المريضِ، فصورتهُ روحُهُ،

والروحُ إنْ دخلتْ في سجونِ المرايا

لا تعودُ إليهْ!

ونحنُ زوايا

لو تركتُ ورائِيَ قوسَ قزحْ

لن أعودَ إليهْ!

بماذا يحسُّ نبيٌّ رأى مسرحاً للدّمى؟

إن كان" صحيحُ البُخاري" لهُ، فبقايا بخارى

عليهْ!

إنَّما، والذي يولجُ خيطَ النورِ في إبرةِ العتمةِ

، يا ملهمتي،

سوفُ يصغونَ إليّ.

ويهيلونَ الزهورَ على تربةِ قبري والترابَ عليّ

ثمَّ يصغونَ إليّ.

قردٌ أصفرُ ينشدُ فوق تلالِ المستقبلِ: لا ترحلي!

يغتالك الترحالُ من غيرِ اتجاهْ!

فمن الشرفةِ غاباتٌ تستشرفُ ظلَّكِ حين يمرُّ

على فخٍّ القمرِ الموحشِ مثلَ شعاعِ سراجٍ يطفحُ بالرؤيا

السريَّةِ مثلَ عيونٍ تنضحُ

بالأصفرِ واللذاتِ المشغولةِ بالإبرةِ

والنهرِ، ولن تجدي

غيرَ غروبٍ كالعين ذاتِ الجفون المعدنيةِ،

في بؤبؤها الدواماتُ المائيةُ واللونيةُ حول

وجوهٍ من تطريزٍ في

أطُرٍ من ذكرى،

وترينْ

بواباتٍ من ندمٍ أخرى وتعودينْ

من عدم الرقصةِ في الخارجِ، أو، بالأحرى

، من بحثكِ عن معنىً للبحثِ،

وعن "واوِ" العطفِ، وعن حرفٍ يربطُ بين

الجملةِ حين تصير "شموعاً تحت الماء"[١]

من خان له اللذةُ، لكن من لا تتبعهُ إلاَّ فرسُ

النهرِ ولا خانَ لهُ،

أينَ يبيتْ؟

والزنبقُ ينبتُ في لحيتهِ المنحوتةِ من حجرِ

والمزروعةِ في التربةِ،

أينَ يبيتْ؟

فاتّقي الله يا فرعونةَ الأُقصر فيَّ، فآياتكِ في الآفاقِ

وفي نفسكِ،

قلبك أدرى

منكِ، ففكِّي اللغزَ الغامضَ فيهِ، بهْ.

قمرٌ ووجهي من جليدْ

أشعرُ بالحزنِ الليلةَ، ممحوّاً من كتب الطينِ، بارداً

وبعيدْ

كاللغة المسمارية، أشعر بالحزن الليلةْ.

زخّاتُ المطرِ الأبيضِ والعطرِ المتطرفِ حول يدينِ
تحفران الخرائبَ الأثريةَ،
بحثاً عن موانئٍ وأمومةٍ، خضرةُ الأعينِ المستديرةِ
بالمخاوفِ، السماءُ الصغيرةُ البيضاءُ الأميلُ
للصفرةِ المسجونةِ خلف جفونٍ تحلمُ
باستداراتٍ جديدةٍ في الحظِّ والحمائمِ
لا تشكّل الآن لوحةَ
ذاكرتي.

ممحواً من سِجلِّ الطينِ وألواحِ الوصايا
، بارداً، وبعيداً، كاللغةِ المسمارية،
أشعر بالحزن الليلةْ.

حدسٌ غامضٌ يرتفع الآن من خرائبِ ما قبل
الوعيِ، دخانٌ أصفرُ يلتفُّ حول جبلٍ
تحت قمرِ طفولةٍ يطارد أعيناً يتيمةً،

أغنياتٌ متأخرة!

"قبابٌ من اللذاتِ مشمسةٌ وكهفٌ من جليدٍ"[1]

تفاصيلُ صوتي؟

إرادةٌ نصف منجزةٍ، مثل تمثالِ ذهبٍ لا وجهَ له، تغرقُ

الآن، مثل سفينةٍ من ذهبٍ

لا بحارة فيها، في الزبدِ المقمرِ لبحر تشابيهِ

متكررةٍ ومتأخرةْ؟

تقفين على الباب في حلمي، أستدير إلى الداخلِ، نحو

مصيرٍ آخر، عجوزاً يتجهُ لغروبِ الأشياءِ،

ملوِّحاً بعصاهْ!

ألم نفترقْ، بعدُ، المغني وأغنيتهْ؟

ألم نفترق، بعد...؟

---

[1] كوليردج. أصلاً: " قباب مشمسة من اللذات بكهوف من جليد".

أشعرُ بالحزن الليلةَ في هذه الغرفةِ الخشبيةِ،

المخفيةِ في أراضٍ منسيّة،

وفي مشاعرِ ذنبٍ وأحلامٍ في سجونٍ مسروقةْ،

وأنا أحدِّقُ في عينيكِ (ذكرىً) فأرى لؤلؤة

خضراءَ من الموسيقى والغياب معروضةً

لوجوهٍ من جليد منحوتةْ،

وأنا أدَّعي بأن الاستداراتِ الجديدةَ في الحظِّ

والحمائمِ... لا حاجة لي بها،

أشعر بالحزن الليلةْ.

وتغريني أوديةٌ تلمعُ، من ذهبٍ أخضرْ

في ظهيرة صحراءٍ حمراءْ

فيها أفاعٍ من الرملِ الملونِ بالوردِ الأصفرْ،

تغريني... بالركض إلى خيولٍ مطرَّزةْ.

أحببتك، جداً، أيام كنتُ صدى...

آه، يا مدخلي،

فقط غزلانٌ خائفةٌ ذكَّرتني بعيونكِ الماضيةْ.

ووجوهي من الجليد تحدِّق الآن في القمرْ

كي تفسري لها لؤلؤةَ الموسيقى التي تذوبُ بين أصابعك

الشاردةْ

كبراءة عينيك السوداوين كدبَّيتين

فاذهبي،

فقط اذهبي، لركوبِ خيولٍ من الملح على

الساحل المقمرْ،

ودعيني أبحث عن خيارٍ آخرْ:

لا أحتاجُ لأن أحتاجْ...

أحتاج لأن أُحَبّ.

زمن كاترين ميشيل

قالت التي تلبسُ حذاءً أطولَ من التشردْ:

"عندما يقع الثلج في أوَّلِ الشعرْ...

ذاكَ كان كذلكْ... في الستينيّاتْ...".

فردَّتْ التي تنكِرُ، وتفرمُ بصلاً على طاولةِ الخشبْ،

" كذلك كاترين ميشيل،

التي استحضرتْ البرقَ الذي- لا معنى لذلكَ-

كان يأتي لكي يستنزفَ القلبَ

وكنتُ صغيرةً معها،

وكم ارتعبْتُ في آخر الجهاتِ حتى أوَّل أفقِ الوردْ.

لست رحالةً كي أكذِّبَ ما أرى،

عندما كنا خطّاً، أو زاويةً من وجهٍ أنثويٍّ

يرفعُ ملحمةً للغيبْ.

كم نسيتُ الكتبَ المنزلةْ
في حلمِ اللحمْ.
ومحتنيَ اليقظاتْ!

كذلك كانت الأشياءُ في زمن كاترين ميشيل:
الرغبةُ في الفاصلةْ،
قبلَ التعودِ على لا أدري، وزمانِ الزجاجِ
المسحوقِ في الدمْ
الرغبةُ في الخروجِ من القمرِ إلى الزنبركْ
وعواءُ السطورِ المتتابعةْ،
وشقِّ الجديدِ كبطنِ ذئبْ،
وكذلك كان ينبوعُ الصافي، ومحمدُ الذي
تطَّرف في بُسطامْ،
والثلجُ المتساقطْ.

اتكأتُ على بنتِ شفةٍ ليست لي، أيامها،

وارتعبتُ من العيونِ الغائرةْ

في لحمِ ذابلٍ لجيلٍ قديمْ.

بالعنقِ الملتفّةِ نحو الوراءْ،

وكنّا ثلاثْ،

أعمقنا كاترين ميشيل، كذلكْ،

في الستينيّاتْ،

وكنتُ كصندلِ رملْ،

فكّرتُ طويلاً في بداياتٍ أُخرى...

قبل أن ننسى العرافاتِ اللواتي كن يأتينَ مثل مياه العقبةْ،

ويقفن كضمّةِ نرجسٍ تنمو أمامي،

والقمر قديمْ،

في بدايات أُخرى...

حيث لا يتلبّسني فنجانُ الذهبِ الذي كتبتُهُ لغريبْ،

أثناء عودتي للبدائيّ.

كنتُ مكسورةً، لا حدَّةَ في الوجه المخفيّ.

وتنوُّرتها - كاترين ميشيل - بُنيٌّ مخططٌ بحبوب الفستقْ

في حذاءٍ أضخمُ من ذكرياتيَ عنهْ

فالتفتتْ للوراءْ

لتستخرجَ الزمنَ الآخرْ

من حافة أرضٍ عقيمةْ،

ولاحظتُ الحدَّةَ في الوجهِ، الضحكةَ

الممزوجةَ بالخوفْ،

وبزوغَ الأزرقِ في يدٍ ممدودةٍ لسماءِ برقِ الجبلْ

ومطر لا أدري

"الناسُ نيامٌ فإذا مَاتوا انتبهوا"[1]، الكلماتُ

تأتي من الضواحي...

وضحكتْ، واختفتْ في ذكرى غزالةِ النورْ،

بعيداً عن المدنِ التي شعورُها دُوارٌ من

أضواءِ النيونْ،

---

[1] حديث نبوي.

وكان ذلك حلماً بأسماءَ أُخرى لذاتِ الوجهْ،

وكنت شيئاً آخرْ،

قبل الرجوعِ للمبتذلِ في سنةِ التكرارْ

لا يجدي تذكّرُ أشلاءِ الكلامِ القديمْ،

ولا الدفاعِ عن الذي سيعيشُ، وإن كانَ يبدو

ميتاً في عيونٍ فقدتِ الأفقْ،

ومناديلُ الرمادِ التي تشكّلُ سطحَ الوجهِ لا تجدي...

كان ذلك في الستينيّاتْ،

والقمرُ هادئْ

عندما كنا نتهيأ للرحلةِ نحو الجنوبْ،

الفراشاتُ الذهبُ كانت تحلّقُ في بابِ الكهوفِ

، أيامها،

وكنت أقرأُ عن جين موريسْ، وبلادٍ تموت

من الثلج حيتانها ،

وصفرةِ الموزْ،

قبل أن يصبحَ الشعورُ بالانقراضِ حقيقةْ.

وخيرُ عقولِ جيليَ مرميةٌ فوق مزبلةِ الإغماءْ،[1]

تبحثُ عن اللوحِ المحفوظِ في الحلمِ الغيبيّ،

والشوكةُ ورديةٌ في عمقُ الماءْ،

وكاترين ميشيل تمتدُّ على ضفافِ الأنهارِ

المسكونةِ

بالأُسُودِ والقصبِ والبعوضْ،

في مستنقعاتٍ قريبةٍ من خليجٍ مالحٍ يتموجُ

يكشفهُ القمرُ ذاتُه الذي نصحتنيَ بالخلاصِ منهْ،

وأنا أُغنِّي مثلَ تمثالٍ من الملح لِـ "قمر مونتانا"،

في الغناءِ من الأشياءِ ما لا تفهمهُ إلاّ المغنيةْ...

من النجومِ التي تحدِّدُ لنا قدَرنا كل طلعةِ

صبحْ،

كانت الأمزجةِ جديدةْ،

قبل أن يبدأ العواءْ،

والمغلق يستولي على الوعي،
والعشبُ الأخضرُ يخفي عربيدًا يعصرُ الروحَ كبرتقالة.

وكان ذلك في الستينيّات،

فضحكتْ كاترين ميشيل، وفيفي علي، التي
كانت تقرأُ كتاباً عن الخوارجْ،
وتكتبُ قصصاً رخيصةً عن حريَّةٍ ما.

غنيَّتُ بعدها في "بار لوُلا"، في تل أبيبْ
وذراعي بيضاءُ لففتُ عليها خيوطَ الذهبْ
فزرتُ كاترين ميشيل،
ومعاً ذهبنا إلى الزبدِ والرملِ والشمسِ والبحرْ،
وكان جسدها برونزياً، فاشتهيت النحاسَ،
الضحكاتِ التي لم تُضحكْ بعدُ،
وكان البحرُ واسعاً، حيناً، وحيناً... لا أدري،

إن هندستي أن أصمِّمَ نفسي وصمتي غنايْ.

وهذا الوادُ من برقٍ على حجرٍ إلى مطرٍ على شجرٍ،
يشدُّ رؤايَ وحزمةً من نرجسي وغنايَ، دفنتُ الأحبةَ،
خيرَ الأحبةِ
فيهِ، الأسودَ الثلاثةَ، فاتركونِيَ كي أفتشَ في فضائِيَ
عن سمايْ.

حكمتي في خطوتي والدربُ خطٌّ مائلٌ أو زائلُ
مستفعلن أو فاعلاتن فاعلُ

"هذا أوانُ الشدِّ فاشتدي زِيَمْ[1]
قد ساقكِ الدهرُ لسوّاقٍ حِطَمْ[2]
ليس براعي إلٍ ولا غنمِ"

اتركوني كأني على الوجناءِ[1] في ظهرِ موجةٍ

رمت بي بحاراً ما لهنَّ سواحلُ

سوفَ يحرسني اللهُ أو قدمي

أو قَرُّ[2] هذا البرِّ أو قلمي

أو صرُّ[3] هذا الإرثِ من عدمِ

اتركوني، نويتُ الرحيلَ،

وداعاً، بني أُمّي، أنيخوا مطيّكمْ!

فإني إلى قومٍ سواكمْ لأميلُ

ولي دونكمْ أهلونَ: سيدٌ عمَلَّسٌ

وأرقطُ زُهْلولٌ وعَرْفاءُ جَيْأَلُ[4]

لا تقولوا لِيَ:

"ودِّعْ أميمةَ إن الرَّكبَ مرتحلُ

وهل تطيقُ وداعا أيها الرجلُ؟"

مستفعلن فعلٌ مستفعلن فَعِلُ!

يا إلهي، اتركوني

أحفظُ الإرثَ كلَّهْ!

أقدر الآن أن أتوضأْ

بالحرفِ، أو...

كيفَ أحلمُكمْ؟

*

وتعرَّتْ ليلتَها كالنجمةِ فلففتها بالعباءةِ، مرت خشونةُ كفيَّ على حلمتيها، فحنيتها فوق شاهدةِ قبرِ امرئ القيسِ، قالت: "أنا آخرُ الآثار المكتشفةْ".

كانت تعشق أميراً عربياً في حياتها السابقةِ، بين يثربَ والبحرينِ، قالت لهُ روحُهُ من طبيعةِ تلك البلادِ، وشبهِ

الجزيرةِ،

زرقةُ بحرٍ على حدِّ صفرةِ رملٍ

"وإغفاءةٌ زرقاءُ تحت الشمسِ والنخلِ"،

افترقنا، تقولُ، افترقنا،

"بأبي من وددتُهُ فافترقنا

وقضى اللهُ بعد ذاك اجتماعا

فافترقنا عاماً ولما التقينا

كان تسليمُهُ عليّ وداعا"[1]

عادةً ما كانت تعودُ إليَّ في حلمي، وتجثو كاللبؤةِ، عاريةً، على أربعٍ فوق الرملِ المهجور أمامي، وتهزُّ شعرَها، ناظرةً خلفها، نحو الأسدِ اللذيذِ حين كان قمرُ البحرِ الميّت يغسلُ الرملَ ويرسم ابيضاضاً صاعداً نحو أديرةٍ معلقةٍ في جبلِ قُرُنْطُلِ

"فيا لكَ من ليلٍ كأنّ نجومَه

بكلِّ مغارِ الفتلِ شُدّت بيذبُلِ"

كنتُ أدخلها، "والرغبةُ فحلُ حمامٍ في جبلٍ مهجورٍ"[١]

ناسكاً لستُ،

وتحت النخلِ شمسٌ وتمرٌ وفيءُ

وفي عتمةِ الروحِ ليسَ يموتُ شيءٌ تحنُّ له

الروحُ إلاّ ليولدَ شيءُ

وروحي جدارٌ من العتمِ سيَّجهُ بالزجاجِ المكسَّرِ

مالكُ ما خلفهِ

ثمَّ ألقى بقاموسٍ إليَّ حروفُهُ اختلفتْ،

نازعتني على جثةِ الحرفِ عبسٌ وطَيءُ.

ARABIC____ ENGLISH

FRANCAIS___ANGLAIS

لا أترجم، بل أُحوِّل:

الدنيا نارٌ إن أقْبَلَتْ، وإن أدبَرَتْ بَرَتْ، وإن أنْعَمَتْ عَمَتْ،
وإن أينعَتْ نَعَتْ، وإن أسْعَدَتْ عَدَتْ، وإن أرْكَبَتْ كَبَتْ،
وإن حَلَتْ أوْحَلَتْ، وأن سامحتْ محَتْ، وإن صالحتْ لحَتْ،
وإن بالَغَتْ بَغَتْ، دارٌ حلالُها عذابْ، وحرامُها حسابْ،
وشبابُها يهرمْ، وحيُّها يموتْ. عليُّ بن أبي طالب، رضي الله
عنهما.[1]

*

"عندما يعزفُ ذاك الأميرُ على نايِهِ الأحمرِ"، قالت،
" كاللَّحنِ النازلِ نحو غروبٍ ألتفُّ على
ما يخرجُ منهْ... يَّاي لمَنْ عزفْ عالنّايْ يَّاي....

---

[1] أغيِّر في الاقتباس، عادة، في محاورة مع التراث. لذلك فهو تحويل.

(ألتفُّ على دخانٍ

رخاميٍّ يصعدُ نحو القمرْ.

كان نصفي عليهِ، ونصفي معهْ)..

يَمّايْ لَمَّنْ عزفْ عالنّاي يَمّايْ النارِ الخضْرا اللي الدَّفا

منها دخلْ ذكرايْ يَمّايْ!

صرتَ نا وهُوْ أنا، بسِ الوجعْ يَمّايْ مثلِ الميجَنا،

لَمِّنْ أنا وهُوْ صرنا أنا،

والواوْ سربِ اضواوْ وغزالِهْ

مْغسَّلي بالمايْ يَمّايْ. وصيّادي مدايْ العِشِقْ تمثالْ ذهبْ

خالصْ...

ونا من ماليبارْ مشلَّحهْ عالفيّ

عيونهْ خضرا زْموشُهْ يَمّا صْنوبرهْ مدَّتْ عليِّ شويّ

الشَّهِرْ مايو...

FROM WHERE SHALL I BEGIN
THE STORY OF MY LOVE?

حلمٌ دافئٌ، في ليالٍ باردةٌ،

مطرُ الفراشِ، وعزلتي،

نارِيَ الخامدةْ.

الشايْ بَرَدْ يَمّايْ الخراريفِ القديمة كُزازِ الخراريفِ
القديمةْ. شويٍّ شويٍّ القلبْ مثل
الثلِجْ لمّا الشمِسْ
وِقْعتْ عليٍّ شويّ...
عَرَقي في فمي
ودمي ظَلَّ على شوكةٍ مرت عليّ...
حمراءُ، حمراءُ هذي الصخورُ الأخيرةْ. مثل جنديٍّ كسيرٍ
أسيُر أسيراً عليها وأمضغُ
قالبَ ملحٍ صغيْر
وأذكرُ ناياً أحمر اللون يا فتحاتُهُ شبه مغلقةٍ بأصابع ذاك
الأميرِ الذي صار صورةْ
في إطار الغروبِ. "الغريبُ النهرُ- قالت- واستعدّتْ
للغناءْ "[١]

قرب قبرِ امرئ القيسِ، كانت لوحةً، فظةَ الملمسِ،

تكعيبيةً، عينُها خلف

رأسٍ كان مشقوقاً، من النصف، باللونينِ

الأحمرِ والأسودِ. بعدٌ ثالثٌ كان للرؤيا-

"ووادٍ كبطنِ العيرِ قفراً قطعتُهُ

به الذئبُ يعوي كالخليعِ المعيِّلِ"

أين تتجهُ التفاصيلُ التي تبحث عن لوحةٍ لم تكتملْ؟ قلتُ:

تعالي، سأسوقك سوقاً، بدفٍّ من الذهب الإيقاعيّ، إلى

سورة النملِ: قالت نملةٌ "يا أيُّها النملُ ادخلوا مساكنكم"

سيدوسُ سليمانُ علينا، وجندُهُ، وأسمعُ الخطواتِ، إيقاعها،

وبها نداسُ ويقتلنا الاختباءُ

ونفسِيَ ماءُ

وفضاءٌ مقمرُ في أوديةِ الصخرة الحمراءِ، وقبَّرةٌ

تنحني مثلَ قوسِ الرمادِ السماءُ

وفراغٌ فقيرٌ كلُّ ما يبقى فراغٌ فراغٌ فراغٌ، وليسَ

يحاورُهُ الامتلاءُ...

حالٌ..

أحيا ولا أحنو على أحدٍ، ولا أحزنْ

ولا أجني على وردٍ،

كشحْمٍ أسودٍ لزجٍ على عَجَلٍ مُسَنَّنْ

في بطنِ ماكنةٍ، مُمَكْنَنْ

كلُّ ما فيَّ، عصافيرٌ من المطاطِ، في قفصٍ من الرملِ الملوَّنْ.

ووجهيَ نافورةُ ماءٍ في الشتاءِ، يسيلُ،

وبردٌ جديدٌ في الهواءِ، أميلُ،

إلى حيث ترمي بي "القوى": نحو ذكرىً

من المدنِ القديمةِ، أو نحو مخزنْ

من الكلماتِ التي تشبهُ باراً يضيء، وفيه جازٌ،

والزبائن ناموا على الطاولاتِ، عليه أمرٌّ، وفيّ

مرارةُ ظلٍّ، وعيناي من مللٍ ومعدنْ.

ما قالته الغجريّة

كانت تلبسُ قميصاً برتقالياً، وعاريةً من أدنى،
حين صعدتُ إليها - في حُلُمي -
على درجٍ حجريٍّ قديمٍ، هاربا من أُسودٍ شقراء تبحثُ عنّي
قرب النهرِ، وعن فيء
القمرِ تحت الشجرِ، لتأكلني، ومن أُسودٍ جاثمةٍ حول الذي
يصعد الدرجَ كي تلِغَ في دمهْ.

خفتُ... منها، من الأُسودِ، من النهرِ، ومني. فتحتْ
لِيَ باب الحديدِ وأرجفُ...
حتى هدّأتني. قلتُ جئتُ من ضفة نهرٍ لا أميز فيهِ بين
الأشباحِ التي تخرجُ من الماءِ
المختمرِ من القمرِ، وتلك التي تخرجُ من الذاكرةِ

كالضفادعِ، كيف أميّزْ؟

قالت:
أشباحُ الذاكرةِ تأتي من عالمٍ آخر ترحلُ الروحُ في الحلم
إليهْ! والغجرُ يعرفونها: في آذانها

خواتمُ من الذهبِ، وتحب الرقصَ السابقَ، والتسليةَ بكتابةِ
حاضرٍ من نوعٍ آخرْ.

فانتفعْ بالذي تعرفهْ.

ثمّ قالت غامضاً:
لو طلبَ نهرُ الفراتِ هذه القلادةَ الفضيةَ التي في عنقي
لأعطيتُهُ قمحاً كثيراً.

ومددتُ يديَّ إلى عنقها، أتفحصُ القلادةَ، فوجدتها مجرَّد

وشمٍ على اللحمِ كلوحةٍ كالحيةٍ في شكل سلسلةٍ من الفضَّةِ. الأشباح تلعب بي، مرة أخرى! كيف أميِّزُ؟

قالت:

اللاوعيُ حاضرٌ فيكَ بقوةْ

فافهمْ قواك...

من هي؟

تبدأُ بحرف الهاءِ المنحوتِ في سلسلةِ الذهبِ المعلّقةِ في عنقِ

كليوباترا.

وتزوجتْ أسدَ النهرِ - أخاها - فطَفتْ بيضاءَ على الموجِ،

بكتْ،

فبدتْ ثقيلةً، كالنمرِ في النهرِ بدتْ.

الغبارُ الذي حطّ على مرايا العصرِ الأمويِّ قريبٌ من

ملامحها.

وجهها نرجسةٌ في إناءِ القمرِ وسفرْ.

جبينها منحوتٌ من

الحجر الأسودِ، وصدرها

مكوَّنٌ من أقفاصِ ذهبْ.

فافتحها: بعضها يدلُّ على طرقِ تبَّاناتٍ وبعضها على أُصولٍ

سحيقةٍ، وبعضها على مُثُلٍ في وجودٍ سابق. تبدأ بهاءِ

الهُوِيةِ وتنتهي بالواو: للعطفْ.

للعطف. وتبدو كعباءةٍ على كتفِ المسيحِ الذي يرتجفُ

برداً ويبحثُ عن مصدرِ النار.

لَمَّا أنام تنفصلُ عنِّي، مثل منديلٍ ينسلُّ من حلمٍ متوترْ،

وتقف في قاعةٍ حجريةٍ في

إضاءاتٍ خافتةٍ كشموعٍ تحتَ الماء، إنَّها الوردةُ كلُّها.

مالتْ، مثلَ رمانةٍ تحمل قنديلين من الوردِ كجمرتينِ،

وقالتْ:

أنت كالسمِّ أو كالسهمِ في

ساحةٍ أضاءت بالخوفِ فسالتْ منكَ القوَّةُ للخارجِ،

والجوُّ خطِرْ

فطِرْ مثل شذا الليمون. فقلت: إلى أينَ؟ فقالت:

حيث "يزقزق عصفورٌ في الأفقِ الأزرقِ... أمنٌ... أمنٌ...

أمنٌ"[1]

تلك علامةْ.

فأقمْ، لا في العلامةِ، بل في الذي بعثَ العلامةْ.

فالكون علاماتٌ. وروح الأودية

تحنو عليكَ.أقمْ حيث تحنو وتحلو الإقامةْ.

وانتشرتْ حولي دائرةٌ من زهورِ البنفسجِ تدفعُ عنيَ

بقعاً موحشةً، وكنتُ الفرقَ بين

البيت والمقبرةْ!

---

[1] مظفر النواب. بالمناسبة، لا أشير إلى كلِّ مصدر أخذت عنه.

بين المعبدِ، منهُ، من الشبابيكِ، تشعُّ الشموعُ، وينشدُ
صوتٌ غريبُ الصلاةِ،
وبين المسكنِ العاديِّ، بين كتابِ الله والحفرةِ المقفرةْ!

تسللتُ بين الشجرِ والقمرِ كنهرٍ عابرٍ نحو الموحشِ فيهِ،
إلى أقصى المتاهاتِ، فقالت:

إن رنَّتْ ضحكاتِيَ كالأجراس، وهبَّ جسمِيَ مثل الحمائمِ
بين النجومِ، إليَّ عُدْ من "أرضِ السلبِ"، معكْ
لا تحملنْ أثراً، أو ذكرىً، أو اسماً، أو قنديلاً،
أو ثوباً، وإن سألتك امرأةٌ لا تعرفها، عن معطفٍ تعرفهُ
الروحُ كأمّكَ

(لما استبدلتهُ، خطأً،
بمعطفِ جلدٍ كالحِ الاحمرارِ) أعطِها المعطفينِ، وعُدْ!
فارغاً كالقاربِ، أنعمَ من

نرجسةِ الماءِ،
فلو طلبَ نهرُ الفراتِ هذه القلادةَ الفضيَّةَ
التي في عنقي
لأعطيتهُ قمحاً كثيرًا.

فاستمعْ لي الآن:
لا توقظنَّ القوى النائمةَ فيكَ، قبل أن تستيقظ أنتْ.
وانتفعْ بالذي تعرفهْ.
لا تتكئن على الريحِ، هناك جبالٌ تحسبها ثابتةً وهي
تمرقُ مثل مروقِ السحابْ.
لا تتكئنْ، كقردٍ أبيض اللحيةِ والانحناءِ، على شعاعِ قمرْ
لا تبحثنْ عن صلابة في الزَّبَدْ!
وعُدْ لي واقفاً، لا عصاً في يديكَ، ولا دليلٌ خارجكْ،
خالصاً مما عداكْ.

الكونُ نهرٌ وهَرَمْ:

إنْ مِلتَ إلى تتبُّعِ النهرِ مع الموجِ رحتَ
وإن مِلتَ إلى جهةِ الأهراماتِ كنتَ مع الثباتْ.

قَدَرُ الروحِ ما تميلُ إليهْ.

إن ملتَ في العتم للنَّارِ كنتَ مع اللونِ،
وإنْ ملتَ مع النار كنتَ مع الحركةْ.

إن ملتَ إلى رقصاتِ الغجرياتِ كنت مع الشكلِ،
وإن ملتَ إلى ميزانِ الذهبِ كنت مع الدقةْ.

إنْ ملتَ إلى ما كنتَ، كنتَ مع الذاكرةْ
وإنْ ملتَ إلى ما ستكونُ، كنتَ مع المنفى.

وإنْ كنتَ سفينةَ الشفقِ البحريِّ كنتَ مع الحريةِ،
فالبحرُ مغادرةٌ دائمةُ المغامرةْ.

فاعرفْ ميولكَ تعرفْ قَدَركْ!

واعرفْ قَدَرَكَ تعرفْ حاجاتِكْ.

واعرفْ حاجاتكَ تعرفْ من أنتْ.

إذا اتسعتْ حاجاتكَ تتسعُ أنتَ. فمن أنتْ؟

فأجبتْ:

أتكوّنُ كالأسطورةِ، وتتغيّر دلالاتي. كيفَ أميزْ؟

كنتُ كبابٍ من ترابٍ، شقّني الأقحوانُ الربيعيُّ. فمن أُمطرْ؟

تفككتُ لمّا يئستُ من القبضِ على القمرِ

فاكتفيتُ بالتقاط الحُفَرْ.

كيف أرفعُ الهوّةَ إليّ،

كما دعا من كتب عن تحولِ الروح من جَمَلٍ إلى

أسدٍ إلى طفلٍ[1]، والتماسكُ فنّ؟

قالت: الغجرُ يعرفونه..!

لا تخضعنْ أعلى ما في روحكَ للأدنى فيها.

قلتُ وما الأعلى والأدنى؟

قالت: تشبيهْ. فسألت: إن بُحْتُ ، لمن؟

وبأي صوتْ؟

قالت: أعدْ تكوينَ أصابعِ البيانو من جديدْ

تفهمْ بداياتِ صوتي.

قلت: من علّمكِ الحكمةَ والغناءْ؟

قالت: هُوَ.

النهرُ وترٌ. كيف أعزفُ؟ والنجومُ مفاتيحُ ذهبٍ. فمن أُغلقْ؟

قالتْ: الروح فراشةٌ؛ إن حلقت بين رحيقِ الغناءِ الخفيِّ
وبين النرجسةِ الأُولى، من
وإلى، كنتُ أسيرَ "من وإلى"، فالغناءُ ابتعادٌ واقتراب.

أحببتكَ جِدّاً، حين كنتَ مَدى...
وظِلُّ الصنوبرِ في لبنانَ يدعى "الفيء"، وظلُّ الصوتِ
يدعى "الصدى"...

قلتُ لها: لم أكن أبداً

مثلما كنتُ في ذاك الغروبِ الغريبِ، وأنتِ مفاتيحُ الذهبْ
في يديَّ المسافاتُ التي تنكرُ الروحَ والروحُ تنكرها
حزمةٌ من حطبْ!
لم أكن أبداً
مثلما كنتُ في ذلك الوقت، أيامَ كان الحلمُ قصراً على
سقفهِ شبكٌ من ذهبْ

وأنا بين شبابيكِ الشّباكِ وبين سقفِ القصرِ طيور سجينةْ.

والفضاءُ الذي في الحلمِ أبعدُ مما وجبْ

قالت: النهرُ حنينُ المنابعِ نحو المصبْ.

إن ملتَ لهُ، للنهرِ، كنتَ مع "الاتجاهِ"، وإن ملتَ عنهْ

كنتَ مع الافتراقِ. وإن كنتَ ناموسَ نفسكَ

كنتَ "الدليلَ"، وان دلّكَ الموجُ كنتَ مع الالتحاقْ

برؤى سواكْ.

والطريقُ خطوطٌ، والإرادةُ خطٌّ. ماذا ترسمُ؟

قلت: المستحيلُ الفصلُ بين اللوحةِ والرسّامِ؛ إنهما واحدٌ.

كنتُ دُبّاً في المسالكِ،

والآن بين يديَّ الوترْ. كيفَ أعزفْ؟

والحيرةُ فنٌّ. قالت: الغجرُ يعرفونه..!

فاستمعْ لي الآن:

كنْ شلالاً، وكنْ سمكةْ

فالتجربةْ

هي الطريقُ الوحيدةُ للمعرفةْ.

لم أكن أبداً

مثلما كنتُ في ذلك الموجِ، في ذاكَ الغروبِ الغريبِ،

الصخرُ قَدَرْ.

قلتُ: من علَّمكِ الرقصْ؟

قالت: متاهةْ!

مرايا سائلة

إلى الفنَّان إبراهيم المزيِّن

حدَّةُ الخطِّ الأسودِ تضربُ الوجهَ سلسلةً من حديدٍ. السماءُ
حريرٌ ناعمُ الحمرةِ في البعيدِ (تتخيَّل المخرجة الأفق ستارة
مسرح أو سينما)
تموُّجٌ قاطعتهُ الزهرةُ الزرقاءُ التي قلبُها عتباتُ فضَّةْ
تنزلُ نحوَ حبٍّ خالصٍ للهندسةْ... لا! ليس هذا الحزنُ!
قصْ
كلَّ هذا الجزءْ
من الفيلمْ!

(أمامها شابٌّ من الصمت، مدير ظهره لها، يحدِّق في العتمة
في شاشتي كمبيوتر صغيرتين تستخدمان للمونتاج ويشعّ
رَذاذهما الإلكتروني على حواف شعره.)

أهذا الحدُّ البحرُ أصفرُ، وجهكَ هذا، ونهرك أسودُ؟

وجهٌ من الورقْ

لتكتبْ

سماءً كهذه؟

قصْ

هذا الجزءْ

من الصورةْ!

(بدأت بتخيُّل أنَّه هو، الشاب، مشهد آخر في فيلمها، وتريد منتجته، قصَّ وجهه ويديه، ما جعله يرفع رأسه للأعلى ويمطُّ عنقه مثل راعي الإوزّ)

وقت للهجرة كي نبدأ ثانية ابتسامة الموناليزا (ابتسامتها غامضة، بعض رأى
أنَّها تخفي جريمة)

وزهرة البدايةْ؟

نمشي على جسرِ الرخام، وفوقنا نسرٌ من الحجرِ،
لنا نارُ البياضِ وبرتقالةِ القمرِ،

(هنا بدأت في وصف مشهد آخر في الفيلم له رؤيا معمارية بدائية، ويشبه بقعة أثرية ما)

وأعمدةٌ مخلخلةٌ في بابِ كهفٍ، فظّةٌ، ضخمةٌ،
في جوفهِ ماءُ الحدادِ، فراشةٌ مخضرةٌ
مرسومةٌ رسماً على جدرانهِ. الكلماتُ مثل النبتةِ الزرقاءِ
قربَ المنطقِ الأسودْ
كأمواجِ البحيرةِ، كلنّا معبدْ
بدائيٌّ المداخلِ والمخارجِ،
حظُّنا أنْ نستريحَ من الترحالِ بالسفرِ.

أقصى الرؤى أُفقٌ من حجرٍ أخضرَ، في سماءٍ مثلَ سقفٍ من

نحاسٍ أحمرَ، منه تدلَّت أعمدةٌ

تثقلُ الروحَ. المكانُ الذي يفتقرُ للحريةِ من كثرةِ ما تركَّزَ فيه

من النظمِ الثقيلةِ

والزوايا الحادَّةِ يفتحُ على مكانٍ أكثر ثقلاً منه الأشياءُ تلعبُ

دورَنا فيهْ.

(فكَّرت المخرجة في ثقل نظام المخابرات المجسَّم في البناية الضخمة ذات الزجاج الأسود الذي يشبه مرايا تلفحها شمس الظهيرة، حيث تمَّ استدعاؤها للتحقيق، بعد عرض فيلم سابق لها، وخوفاً من التورُّط مَّرة أُخرى، استأجرت الشاب ليساعدها في الرقابة الذاتية على فيلمها الجديد، وكانت تشعر أنَّه هو نفسه مخبر سري. وأنَّ الأستوديو صار أكثر ثقلاً من ذي قبل، ولكن شعورها هذا انتهى من زمن. والآن خطرت في بالها الهواجس الأمنية القديمة. صمتت لفترة ثمَّ واصلت، كمن تطرد الفكرة من رأسها)

الانتباه المركّز ينسى العرضيّ.

قصْ

هذا الجزءْ

من الفيلمْ

الأشياءُ تلعبُ دورنا فيهْ!

(تلبس الأسود، نظّاراتها في يدها، وعلى شفتيها خطّان أسمران حادّان، وفي يسراها سيجارة مشتعلة، تصاعد الدخان ويمتزج بالضوء الإلكتروني الباهت الصادر من الكمبيوترات، تحلّق في الشاشة، ويتلطّخ بشفاه مكورة

أطلقَ ليلاً سهمه الأحمرَ في الأزقَّةِ خلفَ رقصةِ ديكِ جنّ

وأحنُّ إلى ما أحنّ

باسم الوردةِ أرقص رقصة مختلفةْ

وأُطلُّ على ما أكنّ

كي أجعلَ الصلبانَ تحتَ سماءِ النحاسِ ترى العلاقةَ بين

الصلبِ والمعرفةْ

وأجنُّ على ما أجنّ..

قزمٌ يحرسُ سرَّ العملقةْ

عنِّي وعنكَ وعن...

كائناتٌ من ترابِ العصورِ؟... تدور القصيدةُ.. والحلمْ!

(تجلس منهكة على مقعد جلد، وترشف القهوة، تصف ما تراه في الشاشة، لأنَّ المونتير، في الحقيقة أعمى، ويتحسَّس الصور على الشاشة بعصاه فقط، ثمَّ "يقصّ" كلَّ مشهد تصفه، بعيون أصابعه التي تلفُّ على لوحات أزرار ومفاتيح. تمتمت منهكة):

قصّ
كلَّ هذا الجزء
من الفيلم.

(على عيونه نظّارة رخيصة فيها تشعُّ الشاشتان فيبدو مثل رجل آلي. "الرجل الآلي يتكلّم في مجلس الأساقفة"، قال ضاحكاً. كان يتحرَّق ليعرف ما هو الفيلم، قالت: "كلُّ ما تعرفه حذفته أنت بيديك، ولن تعرف شيئاً عن بقية الفيلم طبعاً".

كلُّ ما قالته حذفته، وأمَّا الفيلم فهو ما صمتتِ عنه، الغياب. كان يعتقد أنَّ دافعها لمنتجة الفيلم هو إجراء تجربة عليه هو، الشاب، "عندي حدس بأنَّك تج.. تج تجرين عليّ تج تج تجربة مهمة جدّاً، جدّاً، لما فيه مصلحة الإنسانية كلّها، تجربة غامضة غير مفهومة ولكنَّها لمصلحة الإنسانية جدّاً جدّاً.)

المرأة إثنان

هـو في غرفـة المخرجـة، في بلكـون مـن زجـاج، لـيلاً، هـي تـشرب النبيـذ فـي زاوإة الـصالون، وتحـاول، عـلى ضـوء شمعدان معلَّق في السقف، أن ترى صوراً بالنيغاتيف، ترفع شريط الفيلم نحو الضوء الأحمر الخافت. وتتمتم مغنيَّة:

جئناكَ نسعى، سراجاً، لا يد

في مرايا الليلِ تحرسهُ،

إنّه "عينُ المكانْ".

جئناك مشياً على الماءِ

(ليس كالمسيح، بـل كالنَّار الإغريقيـة التي تطفـو لـيلاً عـلى سـطح المـوج، قالـت لـه، وكأنَّـه لا يفهمهـا، فـأدار رأسـه وأصغى بنزق)

"لأنّي عاجزة عن قول ما في ذهني. توجد لغات جاهزة، متذكَّرة، موازية للتجربة. وتوجد لغات أخرى..
"ضحكت".

حلمت مرّة بأنّي حديقة زهور، ممرّات ورد مقصوص في شكل مستطيلات، رائحة شذى، باب حديد. لم لا توجد قصيدة كهذه، فيها ممرّات ورد مقصوص وبوابة
ويمكنك أن

الموت بلحظة تنظر للخلف فترى "طرقاً في النحاس"، كآثار النمل، حدث هذا معي. لست أدري لماذا شعرت أنّني أرى أبجدية قديمة أجهلها. لكنّني عاجزة عن قول نقش كهذا، فهو شعر لم أعهده من قبل بأبجدية لا أعرفها".

"أكتبيها!"، علّق.

"لا! الشاعرة وساطة روحية، ناي في يد قوى مجهولة. قرأت قصيدة قديمة لشاعر ما، يقول إنّه حلم أنّه تمثال من النحاس في حديقة، في رأسه جرارات من النحاس وتشابيه

[illegible] أن "تقول" ما تشعر

به عندها؟ هل ستحاول تذكُّر طريقة كلامك التي كنت

تعرفها عندما كنت بشراً وأن "تروي"، بهذه اللغة، ما تشعر

به؟ هذه لغة "متذكَّرة"، وحتى غير مجدية، لأنَّ المشكلة

أنَّك الآن "قطَّة"، بتجربة "قطَّة"، أخرس، لا تستطيع قول

شيء، المواء أفضل الآن، أكثر صدقاً. وهل "المواء" على

الدرج، وخربشة الباب يكفي لأن يفهمك الناس؟

أفترض الآن أنَّك حلمت أنَّك تمثال من النحاس يكتب قصيدة عن مشاعره. لست "أنت" كاتبها، بل التمثال! أريد "لغة تمثال"، وليس لغتك. لغة قطة وليس أي شيء آخر..

الشاعر بالدرجة الأُولى شخص قادر على الانمساخ، التحوُّل إلى "أشكال أُخرى"، والعثور على لغة لكلِّ شكل، إنَّه "ساحر" لا يلبس "قناع قطَّة" أو "ثور" أو "شبح"، مثلاً، لا، إنَّه يصير "قطَّة" أو "ثوراً" أو "شبحاً"، يصير أي شيء، والأقنعة، بدون هذا، "ماكياج"، حفلة تنكُّرية، ترف، عمق التجربة هو "صدق التحوُّل" فيها.

أتخيَّل لغةً - مرجاً من جليدٍ - المطرُ ما تركه هشَّاً يتكسَّر تحت القدمين الحافيتينِ، حروفاً - سقفاً من إبرِ ماءٍ تجمَّد في سقفِ كهفٍ فيه قواربُ من حجرٍ فيها هندي أحمرُ يعزف ناياً -

- لغةً - دهليزَ قوى مغناطيسيةٍ خفيَّةً تجذب الروح كإبرةِ بوصلةٍ،

تياراتٍ تبصم في الجلد ورقصَ قوى في

عماءِ معابرِ التكوين بالحركةِ يحمّلني

لا كسرَ لا حزنَ الملمسُ يأخذني

لغةً مثلَ موجِ البحرِ تكسر فوقَ حصى الشاطئ مثلَ أرضِ القلبِ

باردةٍ هي شكلي الآخر".

(غرق المونتير في قصَّة موت لغته الشعرية، وها هي تشير إلى لغات غريبة.. وتتخيَّل لغات غريبة. فخذ فوق الآخر. فاتنة جدّاً، سوداء الشعر تماماً، جسد - لوحة. فستان أحمر مخملي، قصير، بياض فخذيها يسبح في ضوء شمعة.)

"في داخلي، دائماً، بالمناسبة، أكملت المخرجة، رجلان. رجل أسود، بحذاء لامع، يرقص دائماً رقصات سخيفة، وطريفة، ويضحكني، كلَّما أحزن.أحبُّه. فيه حكمة الفكاهة. رجل آخر يجلس دائمًا بعيداً عن كلِّ شيء، على رأس جبل، مثلاً،

ويراقب، يراقب، ولا يتدخل. أنا أُنثى، ولكن فيَّ أنثى شاردة، ممسوخة إلى رجل شارد الذهن - بعيد، يراقب، يراقب، وأُنثى أُخرى، هي، أيضاً أنا، ترقص، وفيها حسّ فكاهة. أعني عندما تكون / مثلاً، رجلاً عنيفاً، وتحلم أنك قطَّة، تُمسخ إلى قطة، فعلى الأغلب ستكون قطَّة بريَّة تأكل جماجم الحمام، وتستمتع بقتل العصافير. وإن كنت رجلاً حزيناً تتحوَّل لقطَّة نائمة ورأسها بين مخالبها، أعني لا يتحوَّل أحد إلاّ إلى شيء كامن وموجود فيه. الشاعر ساحر يغامر في الكامن فيه، والخفي. ليس سهلاً أن تكون قطَّة، بالمناسبة، مرآة نفسك".

(صمت. تشعل الضوء الكهربائي وترفع النيغاتيف نحو السقف. صمت.)

(يستغلُّ الناشر فرصة أنَّ المخرجة لم تزل تحدِّق في نيغاتيف الفيلم، لنشر التقرير التالي، من ملَّفات المخابرات، عن الشاب. "شاعر. ضدّ القيم القديمة والنظم المنبثقة عنها. هاجسه الحرية. يقول أنَّ الشعر قوالب لا تكفي لكي يعبر عن كلٍّ ما فيه، وبدل التضحية بالحريِّة سيضحي بالقوالب. خولف مرَّتين من قبل الشرطة، واستمرَّ في الوقوف في أماكن ممنوعة، على صلةٍ بقوى مدمرة. وجدت الورقة التالية في سلة مهملاته:

كرمينا بورانا

قلْ: "بابا"!

قلْ قلْ: بابا!

قلْ قلْ قلْ:"بابا"!

قلقلَ بابا قلقٌ

قل قل "بابا"!

كركر الطفلُ "ما.. م.. ماما"

(بعد عشرين سنةْ

لم يبق لهْ

إلاّ اللعب الصامت بالكمبيوترْ)

حزنه بوصلةْ

ورؤاه غريبةْ:

غرفةٌ. عرقٌ. ليلٌ. كرمينا بورانا.

حزنٌ تحت الضوءِ الأزرقِ (يسيل كَ)

أفعىً ترفع رأساً مثلّثاً كي

تتأمّل فيَ

فوقَ بلاطٍ أجنبيّ.

لا خلاصَ من القاعدةْ.

أُمْ

سِيةْ

مثلَ آلةِ تصويرٍ تنسخُ منِّي "نُ"

سَخَنْ

بالأبيضِ والأسودْ.

جوفُ يدي شاشةٌ تلفزيونيةٌ فيها ترْ

قُصُ كرْ

مينا بورانا!

منهكةً! ظلُّها

يسقطُ فوقَ جدارِ الغرفةِ. أغ..

مضُ عيني!.

تغْ

مِزُني. أفتحُ عينيّ

مثقلاً بالطقوسِ.. وأبْ

حثُ عن كلمةْ

مثل كلب أثرْ.

في شاشـةِ عينـيَّ التلفزيونيـةِ ترقـبُ كرمينا بورانـا مسلـسلَ

تاريخٍ يحكم أقدارنا

بجهاز تحكم عن بُعْ

دْ

دعيني أقفْ

بين لوزِ الربيع، حذائيَ من لؤلؤ وموانئْ

عيناي المركزُ لاجئْ

فيَّ المركزُ لا!

جئْ!

والمقاييسُ صنع يديّ

أنتَ من أمْ

مةٍ شاعرةْ

وتعلَّمتَ منها التخفِّي بالكلام

وأبْ

أُمْ

مي

في إيقاعات هذه القصيدة يعبِّر عن خجله من "تأتأته". كان يعرف أنَّه سيخسر إن تكلَّم، وإن لم يتكلَّم سيخسر، وأخذ يتأتئ، وكأنَّه يسحب ما يقوله في الوقت نفسه الذي يقال فيه، تفكك الكلام. تعرَّف إلى المخرجة في ظروف مشبوهة. أحبها. قالت لن تتزوّجه إلاّ إن كتب "القصيدة". أيّة قصيدة؟ "تلك التي في ذهني". من يومها وهو يحاول كتابة القصيدة التي في ذهنها؛ لأنَّه يحبُّها، زاد الأمر صعوبة أنَّها هي نفسها لا تعرف القصيدة التي في ذهنها، لكنَّها "ستعرفها إن كتبها"، قالت.)

في إيقاعات هذه القصيدة يعبِّر عن خجله من "تأتأته". كان يعرف أنَّه سيخسر إن تكلَّم، وإن لم يتكلَّم سيخسر، وأخذ يتأتئ، وكأنَّه يسحب ما يقوله في الوقت نفسه الذي يقال فيه، تفكك الكلام. تعرَّف إلى المخرجة في ظروف مشبوهة. أحبها. قالت لن تتزوّجه إلاّ إن كتب "القصيدة". أيَّة قصيدة؟ "تلك التي في ذهني". من يومها وهو يحاول كتابة القصيدة التي في ذهنها؛ لأنَّه يحبُّها، زاد الأمر صعوبة أنَّها هي نفسها لا تعرف القصيدة التي في ذهنها، لكنَّها "ستعرفها إن كتبها"، قالت.)

(خرج المونتير للبلكون. وغرقت في خيال عن فيلم جديد من نوع آخر يساعده في كتابة " القصيدة التي في ذهنها". تخيّلت شاشة سينمائية محدَّبة، بحجم هائل، تغطّي رأس الجبل الذي أمام بلكونها. اقترحت عليه، قبل مدَّة، أن تنصب شاشة كهذه في الليل في رأس الجبل الذي يسكن فيه في الشمال، وأن تنصب شاشة أُخرى شبيهة بتلك في رأس الجبل الذي تسكن فيه، في أقصى الجنوب. كاميرا خفيَّة، في غرفتها، تبثُّ ما تلتقطه، لأقمار صناعية تعيد بثَّه على الشاشة المنصوبة في الشمال. وهكذا يستطيع أن يراها ويسمع ما تهمسه لنفسها، ويتلصَّص عليها، وقد يقدر على كتابة " القصيدة التي في ذهنها".. لم يقتنع لأنَّه أعمى.

اقترحت عليه اقتراحاً آخر؛ أن تعيد تصميم مصطبة بيتها بطريقة مذهلة وجديدة: ترصفها ببلاط عربي عليه تزيينات، أو بقرميد أحمر. كلُّ بلاطة أو قرميدة تحتها زنبرك معدني، وكلَّما دعس أحد فوق أيَّة قرميدة أو بلاطة تتحرك مصدرة نوتة موسيقية محدَّدة، كإصبع بيانو بالضبط. وهكذا يستطيع أن يسمع كلَّما مشى فوق المصطبة موسيقى خطاه، وموسيقى خطاها. ومن الفرق بين الإيقاعين يدرك الفرق بينه وبينها، وقد يعرف كيف يكتب القصيدة التي في ذهنها؛ ستكون مثل إيقاع خطاها. أعجبته الفكرة.

كتابة القصيدة التي في "ذهنها" تعني أنَّها تعرف، سلفاً، إنَّ ما سيكتبه قصيدة، وليس سيناريو لفيلم أو قصة مثلاً. القصيدة، إذن، لا وظيفة لها إلاّ إيقاظ المعرفة النائمة في ذهنها هي، المخرجة، عن الشعر.. كيف يمكن أن يكتب قصيدة جديدة تماماً؟ جديدة إلى حدٍّ أنَّ كاتبها، عندما يكتبها، يكون آخر من يحدس بأنَّ هذه "قصيدة"؟ لا بُدَّ أن

تكون مغايرة تماماً لما هو كامن فيه هو، المونتير، وفي المخرجة. وظيفة هذه القصيدة، التي سمّاها بـ "القصيدة س"، أن لا "توقظ" معرفة كامنة، بل أن تخلق معرفة جديدة. قال لها:

"هل تعرفين ما قاله أفلاطون ما قاله ما.. ما قاله.. قال الروح قبل أن تسقط.. قط.. تس.. قط إلى الأرض تكون ساكنة في عالم المثل، عند الله! وكلُّ ما تعرفه على الأرض.. رض.. أر.. رض.. مجرَّد تذكُّر لما سبق وعرفته عند الله، قبل أن تسقط على الأرض.. المعرفة تذكُّر.. القصيدة ذاكرة قصائد سبق وعرفناها".

(ضحكت المخرجة ودخنَّت من سيجار كوبيّ.

كان أجبن من أن يكسر الشعر كما يعرفه، وبالتالي يغرق في حوارات لا أوّل ولا آخر لها عن الوزن والتقاليد والأُذن العربية والبحور والغنائية، حتى شعر أنّه أخذ يملُّ حتى من نقاش الشعر، ويشعر بالخواء. ولذا صار مونتيراً، لا لشيء إلاّ لتعلُّم شيء جديد، على الأقل. أراد أن "يسمع سينما".)

(لم يأت في الليلة التالية إلى الأستوديو. انتظرته في قاعة فارغة ضخمة، بمصطبة من الإسمنت، وجسر من الحديد متحرِّك كان يتحرَّك في السقف جيئة وذهاباً، بحبال حديد، وكانت تجد لذَّة في صلابة الحركة تلك. دخلت غرفة الأستوديو. ونامت تحت الشعاع الإلكتروني في العتمة، في مكان جلوس المونتير. حلمت بأنَّها تركض خلف حصان عربي يهرب منها في المطر في الشوارع المضاءة ليلاً ويصعد درجاً، ثمَّ يدخل قاعة للسينما فيها يعرض فيلم "المصير" ليوسف شاهين. لحقت به فدخل الحصان في الشاشة، وصار شخصية في الفيلم، في عالم ببعدين. عبثاً حاول الحصان بعدها الرجوع إلى القاعة، لعالم بثلاثة أبعاد، وعبثاً حاولت المخرجة أن تدخل للشاشة، لعالم ببعدين. حاجز

غريب بدا وكأنَّه يفصل بينهما. وقفت في القاعة ونظرت حولها: الكراسي محطمة تماماً، والإضاءات خفيفة، وشخص جالس وحده مثل إنجيل الحطام في الوسط: المونتير يحضر الفيلم).

"ماذا ترى؟" سألته.

"أراني في ساحةٍ من نحاسٍ، وفوق الأفاريزِ نقشُ
وأسكنُ فيها ويلمعُ نعشُ
أراني سحيقاً تراهُ نسورُ البلادِ رفيقاً
أراني قريباً يراهُ القريبُ مريباً
وفي قلبهِ ساحةٌ من نحاسٍ وفوقَ الأفاريزِ نقشُ
وأسكن فيها ويلمعُ نعشُ".

(كان من الواضح أنَّ المونتير لا يرى الفيلم لكنَّه يتخيَّل ما يشاء ويعتقد أنَّ "هذا هو ما يحدث على الشاشة". فكرت ثم علَّقت:

"قصيدة حلوة. غنائية حلوة".

مطّ عنقه من طوق بدلته السوداء.

"تعرفين سلفادور دالي؟عرض على غا.. غا.. لا.. غالا لو.. لو.. لوحة له قالت له: "جميلة "، قال: أنا لا أرسم الجميل، بل الذي لا ينسى. أريد قصيدة لا تنسى، وليس جميلة!".

استيقظت على صوت عصا المونتير على درج الأستوديو. دخل. قالت إنَّه، في اللحظة نفسها التي كان فيها يصعد الدرج، كان، أيضاً، في قاعة للسينما في حلمها، "كنت على الدرج وفي قاعة في حلمي معا؟" ضحك. حدَّقت المخرجة فيه.

"هذه مثل بداية القصيدة التي في ذهني!".

واعتبر المونتير، بفرح، أنَّ مجرَّد كونها حلمت به، علامة خير).

بابانِ: بابٌ سائلٌ كالعطورِ، وبابٌ جامدُ
ومراياً عدَّةٌ، ووجوهٌ عدةٌ، وأنا واحدُ

شبحٌ يعزفُ ناياً، وعبوريةُ سطحٍ أزرقُ أو أخضرُ، سطحٌ

هناك وسطح هنا،

في شتاتٍ يلملمُ بعضهْ!

درجٌ من ظلالٍ أو حجرْ

جلُّ عمري

يتنازلُ، حيناً هناكَ وحيناً هنا يتصاعدُ

نحو صفرةِ أسئلةْ

أسئلةِ آفاقٍ مشكوكٍ فيها - الآفاقُ مرتجَلةْ.

قططٌ بقلوبٍ من خشبْ

وتدلُّ قلباً لا أدلّ

عليهِ منهُ، ولا أملْ

في صباحٍ من زبدٍ في خللْ

أسطحِ موجٍ داكنِ الزرقةِ وانكساراتِ الكتلْ.

سرطانُ بحرٍ

يدخلُ قوقعةً،

فتحاتٌ تشكِّلُ آخرَ مخرجْ

المسرحيةِ جسميَ سهمٌ أحمرُ أطلقهُ الهنودُ الحمرُ كي يصلَ

عصرَ اللونِ الخالصْ

فاتحاً.

(فصام شخصية! هذا فصام شخصية! "وجوه عدَّة"؟

"جملة من تشابيه وصور مفكَّكة، لا يربطها رابط واحد،

شظايا ما "الحقيقة مرآة مشوَّهة" قال صوفيّ، في كلٍّ شظية

ربَّما سطراً فقط، كسرة، من القصيدة التي في ذهن الكون، والتي تنهي التاريخ. نعم، نعم، قال بحماس، عليَّ أن أح.. أح.. أحدس النهاية هذه عندما أك.. أك.. أكتب أي بيت من الشعر.. الشعر تأتأة هذا الحدس. قصيدتي مفكَّكة، شظايا، فصام شخصية. مثلاً، تخيَّلي لو.. لو.. حة لم يرسم رسَّامها فيها غير مثلَّث غريب، بالبنيِّ، أقرب لقطعة من تراب بشكل باهت، بعد مدَّة تك.. تك.. تك.. تمل اللوحة فتدركين أنَّ المثلَّث فم لكائن خرافي له وجه قناع إفريقي. المثلَّث ينقلب معناه ويصبح "فماً" في قناع من إفريقيا. كلُّ ما نكتبه من شعر سينقلب معناه بالطريقة نفسها، عندما

إليوت) الآن نقرأ الاثنين معاً، فنرى المتنبي بطريقة مختلفة و(ت. س. إليوت) بطريقة أُخرى، في سياق عربي، مثلاً. ومع ذلك لا المتنبي ولا (ت. س. إليوت) يعرفان شيئاً عن بعضهما. في القصيدة التي في ذهن الكون "يتعارف" كلُّ الشعر العالمي، في طوال تاريخه، على بعضه، وتكتمل اللوحة! مَنْ يدري كيف سيقرأ إله الشعر هذه القصيدة"؟
قالت: "حلو! حلو! في أُسطورة حثيَّة قديمة أحضروا لرجل إناءين من الماء ليحدِّق فيهما في طقوس سحرية، وبدل أن تسمي الأُسطورة هذين بـ"إناءين من ماء"، تقول: أتوا له بِـ"مرآتين سائلتين". هذا شعر. النظر في الماء هو أول مرآة في التاريخ. هذا هو: الشعر ماء- مرآة تتهشم باستمرار، مرايا سائلة".
قال: "حلو! حلو! في قصر الحمراء في الأندلس، مثلاً، بركة مستطيلة عمقها ضحل، ليست للسباحة. في البركة ينعكس القصر. القصر، رغم عظمته، مجرد ظلٍّ في بركة ماء، ولو لمس طفل سطح البركة بطرف إصبعه لتهشم القصر كلّه،

فالمجد لله وحده. والحقيقة ظلُّ قصر في مرآة الماء هذه؛ تكوين هش، وتشبيه. القصيدة التي في ذهنها بركة ينعكس فيها ظلُّ القصيدة العظمى للكون، والتي لن تكتمل إلاّ في نهاية التاريخ، الشاعر بركة، مرآة سائلة، تعكس جزء من هذه القصيدة كما تعكس بركة قصر الحمراء جزء من القصر.."

حديث المونتير ذكَّر المخرجة بأُسطورة "نرجس" الذي عشق صورته المنعكسة في ماء بركة أو بئر في الغابة، فظلَّ يزور صورته معتقداً أنها حورية ماء، حتى غرق، ووجدوا زهرة نرجس مكانه.

"لا..لا. النرجسية ليست عشقاً للنفس". تمتمت فجأة. "بل هي ذهن يحدِّق في نفسه ويسأل نفسه عن ماهيته، عن كلِّه، مهما تعدَّدت صوره، مثل شظيَّة مرآة تسأل حوافها المكسَّرة عن الشظايا الأُخرى. نرجس يحدس مَنْ هو، ولكنَّه لا يعرف من هو. فاعتقد أنَّه هي؛ أنَّه حورية ماء، أي

أنّه امرأة. الشعر حدس النرجس. ترى النرجس نفسها في
الماء فتسأله: من هي، فيقول لها الماء: إنّها هو!".

(لم تكن تعرف أنّه شاعر عندما التقت به قبل سنين. مرّة كانت، هي المخرجة، تتجوّل في القاعة الواسعة للأستوديو. ليل. تنتظر المونتير. تأخّر. تفتح مسجلاً صغيراً في الأُستوديو، لتسمع شريطاً قديماً لفيروز. كانت متعصِّبة لفيروز، وتحبُّ أُغنية: "كانوا يا حبيبي / ثلج وصهيل وخيل / مارق ع باب الليل".

فتتخيَّل القاعة سيبيريا، ثلجاً لا نهائياً، ومهبَّ خيل بمشاعل تندفع "صوب المدى والنار". وضعت الكاسيت وبدأت ترقص متوقِّعة الثلج والخيل. لكن المونتير كان قد سجل عليه آخر "تجاربه" الشعرية. وقفت تستمع، باستغراب في البداية، ثمَّ بانهماك:

ومعي جبينكِ (ليس إلاّ):

في إطارٍ من خشبْ
فاتحِ الحمرةِ في
شرفةٍ وهمْ.
أحلم أو أرسم لوحة لك بالفحمْ:
جزراً سوداً، وزرقة بحرٍ، ووشمْ.

(الصورة هنا جامدة، ولا حركة، إطار، أوف، تحنيط!
علقت وهي تسمع)

فإلامَ أُطلُّ على الجزرِ السوداءِ، ليلى،
وأشبهُ دائرةً من ذهبْ؟

(عشق للمسافة، وليس حبّاً، تطلُّ؟ وعلى جزر سوداء، أيضاً؟ وتسمّي هذا حبّاً؟ دائرة من ذهب، حلو! الدائرة = الرحم)

قدرٌ، قالتْ. ما يسري في جسدي خدرٌ، قلتُ،
على كتفيها شالاً أبيضَ كنتُ،
وعيناي من لؤلؤٍ، وعلى اللؤلؤِ طلٌّ.
وأنا أنتِ أصيرُ، وأخرجُ منكِ إليَّ، حين أملُّ

(حلو! هنا سيولة، وسريان، حركة).

سفرٌ، قالت. وأنا إبرٌ من ذهبٍ، قلتُ.
على كتفيها شالاً أسودَ كنتُ،
ويمطرُ ظلٌّ..
جبال عينيها.
ومرَّتْ موسيقىً، كالهاجسِ، منها إليَّ، ومنِّي إليها،
وسالتْ
روحُها فيَّ. علامَ يدلُّ
كلُّ ذلكَ؟
قالت: شظاياكَ كلٌّ!

وما العشقُ إلاّ

"يعرِّضُ قلبٌ نفسَهُ فتصابُ".

"وما كنتُ لولا

أنتِ إلاّ

مهاجراً، له كلَّ يومٍ بلدةٌ وصحابُ".

(جاء. قالت له أنَّ هناكَ حواراً في "قصيدته".

" أيَّة قصيدة؟"

"المسجَّلة على الخيل والثلج يا حبيبي".

صدم لما سمعها تقول "قصيدته"، لأنَّها هي المخرجة، عرفت سلفاً أنَّ هذه "قصيدة"، أي أنَّ كلَّ ما كتبه مألوف، عادي، مكرّر هلهل النسج كاذب!

"حوار بين من ومن؟"

"بين الفنَّ التشكيلي والشعر"، قالت،

"تتكلَّم عن "لوحة بالفحم"، وبين الشعر والتصوير، فتتكلَّم عن "إطار"، وبعد ذلك، حين يتخيَّل نفسه

"شالاً"، هناك تماسّ بين الشعر وبين تصميم الأزياء."
حلو! لا بُدَّ دائماً من تكسير اللغة الخاصة بالشعر عبر إدخال مفردات مستمَّدة من الفنون الأُخرى. ليس مفردات فقط.."

وانتبهت أنَّه لم يقل شيئاً.

"فيم تفكِّر؟"

"في الموت!"

(كان المونتير مسكوناً بخوف قديم، وطفولي: بالخوف من أن "يساء فهمه". حتى عندما فقد بصره، في حادثة غامضة، قيل من التعذيب في المخابرات، وقيل من "ماء النَّار"، وقيل أعمته طريقة تفكيره، ولكن الحادث بقي غامضاً، وأرجعه إلى "سوء تفاهم" ما.

ولذا قرَّر، قبل أن يلتقي بها، أن يكتب شعراً لا "سوء تفاهم" فيه. ووضع "لائحة" بشروطه:

١. يجب أن تكون الفكرة "واضحة" تماماً. وأوَّل فكرة واضحة هي الموت، هي علاقة الموت بمعنى الحياة. وعلى هذا النمط كتب، مثلاً:

"الجبلَ يا ساريةَ الجبلْ!

ما سمعتُ الكلامْ

فارتطمْتْ

- مثل طائرةٍ في الغروب- به، سوف يتلو انفجارٌ أخضرُ

النارِ بعديَ،

يتلو عليَّ وصايا الحطامْ-

قلتُ: "قوةُ موتْ

تدفعُ المعنى لهذا الحبَلْ".

٢. يجب أن تكون القصيدة "قصيرة" جداً، إن أمكن، أطول قليلاً من شعر "الهايكو" الياباني. فكتب، مثلاً:

"لا تلمُّ بي لغةٌ ألَمَّتْ بي

وداعاً.

في شفافية النجم قلبي، آخرُ الليلِ بابُ

وأفردُ أخضري ورؤاي وأمضي

"وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابُ.."

لا مساحة لي في ساحة مسحتني

وداعاً".

٣. لا بُدَّ، على الأقلِّ في البعض، من دمج "الأسماء"، و"الأمكنة"، و"الأشخاص"، معاً. موت الشخص هو موت اسمه ومكانه، وموت المكان هو موت أسمائه وأشخاصه. فكتب، مثلاً:

لا ترقصوا بخيولكمْ حولي، فراغٌ مقمرٌ في داخلي وتخافُ منه الخيلْ

قنديلْ

ونهرْ

وعينٌ على النهرْ..

الثلاثة قتلوا، وأنا لم أعد موجوداً.

بيني وبينكم اللهْ

والمسافةُ، والمياهْ

وخنجرٌ أسودْ

وشيءٌ لا يُرى في خضرةِ الليلْ".

٤. بعض المقطوعات لا بُدَّ أن توحِّد بين "هاجس الموت"، وفنِّ النحت، أي بين الموت والجداريات، مثلاً:

"ومرآةٍ مربَّعةٍ في جدار قديمٍ، إليها نظرتُ، رأيتُ حبيباً،

مات من سنتينِ،

ينزغُ نحتاً في إطارِ الجدارْ.

قلتُ: كيف العالم السفليُّ؟ لم يسمعْ. مشى في وسط القاعةِ.

صارْ

تمثالَ صخرٍ. قلتُ: كيف العالم السفليُّ؟ طارْ

رأسُه الحجريُّ. لم أرَ إلاّ قامةً مأكولةَ الكتفينِ،

كيفَ الزنبقُ الأزرقْ؟

فالتفتْ

نحوي، وقال: المطلقُ المحضُ مطلقٌ

مستقلٌّ عن ظروفِ وزاويةِ رؤيتنا له.

قلت: من أينَ تبدأْ؟

قال: من دفن طفل ميتٍ في جرَّةِ الفخارِ، الفناءُ شهادةُ منشأْ.

٥. لكن "النحت" يتمُّ بالإزميل، بخطوط حادَّة. ولذا لا بُدَّ من الخلاص منه بواسطة استخدام "اللون" أكثر، وكان المونتير قرأ تمييز (بودلير) بين من "يرسمون بالخطّ" ومن "يرسمون باللون"، النمط الثاني حدسي، أُنثوي، ديني، غامض. ولم يكتب شيئاً من هذا الطراز، حتى التقى المخرجة وأحبَّها. فكتب لها خفية:

"كنتِ في الجهةِ المظلمةِ لجبلِ القمرِ، رجعتِ، بفرسكِ

البيضاءِ، إلى حيثُ كنتِ،

عندَ مفترقِ الترابِ عليكِ الاعترافُ بأَنَّك تهتِ،

عندَ برودةِ النبعِ، بينَ زنابقِ الماءِ ظلكُ حاصرهُ الكهنةْ

مَنْ هؤلاءُ، سألتِ، يحرسونَ الكلامَ من الخلخلةْ

مَنْ غيرُ هؤلاءِ الكهنةِ أغربةٌ في عباءاتِ العتمةِ تطلُّ على

النهرِ المتجمِّدْ

صباحاً،

بين ظلالِ الحواملِ،

والبعيدِ عن النخلْ،

المتجمّدْ

صباحاً؟

في زرقة القمرِ على الجسرِ أتيتِ، وقفتِ كلوحة (غوغانَ):

"مسيح أصفرْ"

وبشعرٍ من ذهبْ

وقناعْ

- شفاهٌ سودْ

وجبين أحمرْ -

وجوهكِ مختلطةْ

والموسيقى غريبةْ..

ونظرتِ إلى النهر المتجمِّدْ

صباحاً

بين ظلال الحواملِ،

والبعيد عن النخلْ،

المتجمِّدْ

صباحاً.

في خضرةِ القمرِ، في الغابةِ، للجسرِ أتيتِ،
شعركِ شبهُ دراهمَ فضّةْ
تلمعُ في العشبْ
من يوقدُ الشمعَ على النهرِ لموتىً، قلتِ، في
لحظةٍ كالمسيح-
حينَ كانتْ لمسةٌ من أصابعكِ تساوي صباحاً؟
تجوّلتِ حَول ضواحي الجنونِ وعاشرتِ سكّانَ هذا البلدْ
والمصابيحُ خضراءُ خضراءُ، ليلتها،
وحيثُ نظرتِ مرايا، وخلفَ الزجاجِ دمىً، وعرايا من
الجبس،
ليلتها لا تثقْ
بأحدْ
أو بلدْ
قلتِ، واشتدّ إيقاعُ نافورةٍ، لم أجدكِ،
صباحاً!"

٦. تجب الاستفادة من "المونتاج": قص الإيقاعات كما تقصُّ أشرطة الصور لخلق فيلم، ولصق الإيقاعات المقصوصة معاً، بحدَّة، وفي الوقت المناسب. مثلاً:

قميصٌ برتقاليٌّ وشالٌ أسودُ..

زارتني السيِّدةْ.

وقفةٌ، بابٌ، وليلٌ ساجدُ

نظرة متعِبةْ

وفي الصمتِ كالأنبياءِ، وكالأنبياءِ تماماً مرعِبةْ

زارتني السيِّدةْ.

"إذا متُّ فانعيني بما أنا أهلهُ

وشُقّيّ عليَّ الجيبَ، يا ابنةَ معبدِ

ولا تجعليني كامرئٍ ليس همُّهُ

كهمِّي..."

(عندما قالت له بأنّها ليست لـه إلاّ إن كتـب "القـصيدة التي في ذهنها"، حاول أن يتحسَّس ما الذي تقصده، فسجَّل كلَّ قصائده السابقة على شريط، وتعلَّق بأمل أن تحبَّ شيئاً منها.

فاحتجت المخرجة من زاوية غير متوقَّعة تماماً:

"روح سـوداء. شـعرك نهـر أسـود يحيط بـالأرض كـسوار، فانقش قصائدك هذه على قلادة من الفضَّة علِّقها في عنقك اعترافا بأنَّك.. سلبي".

لعلَّ القصيدة التي في ذهنها عـن "الحـبِّ"، بـلا سـلب، ولا موت، ولا إدانة. فكَّر. وبعد مدَّة دخل الأستوديو وفي يمناه عصاه، وفي يسراه إطار فضِّي، فيه مرآة مستطيلة، فوق المرآة، في مـستطيل أصـغر، قطعـة قـماش مـن حريـر أسـود عليـه "طـرِّزت"، بخـطٍّ كـوفي صـعب القـراءة، قـصيدة عنهـا،

مستوحاة من.. لم تسمع. وعلَّقتها على الجدران الإسمنتية

للقاعة في الأُستوديو. كان ليل. في الأُستوديو

كان ليل. قرأت، بشمعة في يدها ترتجف شعلتها في المرآة

المستطيلة:

"حلمتكِ.

عيناكِ مقامانِ للأولياءِ مقامٌ يزار وفاءً للنذورِ ويشعلُ فيه

السراجُ،

بزيتِ الطقوس، وآخرُ يطفو على الماءِ في حلمي،

ويضيء لي الأشياءَ. يذهلني الحبُّ في الحالين: حينَ يزورُ

وحينَ يُزارُ

كأنَّكِ صيغةٌ عُليا لما ضاعَ منِّي، ويرجعُ لي، حين ينكشفُ

الستارُ

ويداكِ درجْ

من القرميدِ. أصعدُه فيكسرني، ويسقطُ جسمي زجاجاً،

ويصعدُ روحي

عطوراً،

وبعض الصعودِ عروجٌ، وبعضُ الصعودِ انهيارْ

ولم يركِ الكلّ رؤياي، ليسَ على الأعمى حرجْ!

وبعضُ العيونِ رمادٌ، وبعضُ العيونِ انبهارُ

حلمتكِ.

شَعركِ كان سماءَ زجاجٍ معشّقْ

لا يُحَسُّ، ولا يُمسُّ، ويشعلُ الأرضَ، ولم تمسسهُ نارُ

نورهُ الحدْسُ، وأمسحُ عينيَّ بالحبِّ حتى أراهُ، ويجلو عمايَ،

وبعضُ العيون مرايا وبعضُ المرايا غبارُ".

كان يصغي للصمتِ، عصاه في يده. شاشة المونتاج أمامه،

وهو على مقعد أسود. أكملت القراءة

غامض اللون، ليلاً، من خلفه تشع النجوم وتشعل الأرض بنور شفيف. سابقاً، في الكنائس القوطية، كانت شبابيك الزجاج المعشّق ذات شكل هندسي له ١٢ ورقة، أو ضلعاً، لكي يقلّد "دائرة الأبراج" في السماء. في القرآن الله "بنى" السماء، كهندسة معمارية يعني. ويداي "درج من القرميد"، وعليهما تصعد لمعمار مقدّس آخر: مقامات الأولياء. حلو. الجسد له هندسة الكون المقدَّسة نفسها. فلسفة قديمة ولكن جميلة. نحن الآن في كون مفكك، أو نريد أن نراه مفكّكاً.

كانت المخرجة تسترضيه ربّما، وتجامله. فإنَّ كانت تحبُّ "كوناً مقدَّساً"، بهندسة متناسقة وبديعة وإلهية، لماذا تشغله عندها "مونتيراً" لا شغل له غير "قصَّ هذا الجزءَ من الفيلم"؟ غير "قصقصة الواقع" وإعادة منتجته وتركيبه حسب مشيئتها ومخيَّلتها؟ أو ليس هذا انتهاكاً للواقع كما صاغه الله، أو ليس، بكلمات أُخرى، كوناً من "شظايا" لا

حقيقة فيه إلاّ ما تعتبره المخرجة "حقيقة"؟ وتذكّر قول محمود درويش:

"وعظامي كالعصا في قبضةِ المخرجِ، لكنّي أقولُ:

أتقنُ الدورَ غداً يا سيدي

ولهذا أستقيل".

أولم يصبح الواقع كلُّه "عصا" في قبضة شركات السينما والتلفزيون وكتل المونتيرات والمخرجات والمخرجين والممولِّين والموزِّعين، وبعد ذلك أجهزة المخابرات والشرطة والجواسيس؟ أيَّة "حقيقة" ستبقى لِـ"القصيدة التي في ذهنها؟" بعد ذلك كلِّه، ولسماء "من زجاج معشَّق"؟

ومشى وحده في المطر، تاركاً المخرجة خلفه، استدار للشارع الخلفيِّ المظلم، ضارباً الأرض بعصاه كأوديب عندما غادر "طيبة". إلى أين؟

لحقت به. "لماذا تجاملينني؟". قالت له لأنَّك "هش".
ساقته إلى بار. أضواء حمراء. أشباح العابرين في الزجاج،
مطر خفيف، وأُغنية: "غرباء في الليل" لِـ (فرانك سيناترا).
"عن قصيدة الزجاج المعشَّق تلك.."
كانت تريد لفظ شيء ما، قاطعها:
" كلُّ فنان خالق. عند (نيتشه) ماهية الإنسان، جوهره، حاجته الأصل، ليست الشهوة، ولا السيطرة، ولا الاستهلاك، ولا أن يحمل أعباء الوطن أو الأُلوهة أو العائلة أو الفنِّ، بل الخلق. نعم، الخلق. عندما تتدهور ثقافة شعب، وتنحطُّ روحه، يحتاج للمجاملة. زمن الرجل الأخير، هذا زمن الرجل الأخير، ولست رجلاً، ولا أخيراً!"

وصرخ مديراً رأسه كمروحة للنادل:

"ويسكي بثلج!".

نظر للأعلى وأدار رأسه وقال:

"ما هو "سلبي" جزء من القصيدة التي في ذهن الكون!
تماماً كالعمى في تاريخ الأعين، وكالمرض في تاريخ النَّاس،
إنَّه لون من الروح، كالأسود في تاريخ البصريات، كأثوابِ
الحداد في تاريخ البكائيات! كلُّ ما يستحقُّ الوجود يستحقُّ
المعرفة، هكذا قال (فيورباخ) في "جوهر المسيحية".

نهضت وخرجت وتركته يتكلَّم مع نفسه. لم ينتبه إطلاقاً).

(بلكونها. الدنيا قمر. المونتير يمدُّ عصاه نحو القمر، ويتحسَّس الفضاء، كجدار من رخام. هي تسمع موسيقى بلوز صحراوية، وموالاً بربرياً. ضوء شموع معلَّقة في الجدران. برودة هواء الصيف.

أدرك المونتير أنَّ هناك "سوء تفاهم" ما. أنَّ القصيدة الممكنة الوحيدة التي في ذهنها لا يمكن أن تبدأ "منها"، فهي أدرى بنفسها، بل منه فقط، على أمل أن يلمس شيئاً ما في روحها، في روح تبقى روحاً "أُخرى". نظر نحوها، حين سمع صوت خطاها. ترقص في الصالون. وتغنِّي له أُغنية كانت تحبُّها من فيلم "تانغو بار": "في قلبك، يا سنيور، طائر لا يغنِّي".

كانت تقصد شيئاً لا يفهمه إلاّ من يعرف الفيلم: المغنِّي قد يطرب العالم كلَّه، وفي قلبه هو، من بين كل عباد الله، تبقى منطقة لا تطرب ولا تغنِّي. نشأت رقصة "التانغو" في بار قديم في ضاحية فقيرة في "بيونس آيروس"، على يد شلَّة من فنَّانين فقراء. أحدهم، مع قدوم الفاشية للأرجنتين، ومع حبٍّ فاشل، لأنَّ التي أحبَّها في الشلَّة أحبَّت غيره، يحزم حقائبه ويرحل للشمال، لنيويورك. ومَنْ هناك، على يديه، تغزو رقصات "التانغو" العالم كلَّه. بعد خمسة عشر عاماً في المنفى، واللاجدوى، يحزم حقائبه ويرجع للبار القديم نفسه، ويستقبله أصدقاؤه القدامى بـِ"في قلبك، يا سنيور، طائر لا يغنِّي".

شرد المونتير لماضيه. كان يكتب أُغنيات، قديماً. وانتشرت أغانيه. وفي ليلة ما، كان مارقاً أمام مسرح فيه حفل صاخب. سأل: لمن الحفل؟ قيل له: للمغنية التي تغنِّي أغانيه. هو وحده وقف أمام الدرج الرخام، في الخارج،

وحده لم يدع للداخل، ولم يعرف. فمضى ضارباً الأرض بعصاه، بين رذاذ المطر وإضاءات السيارات، ومن بعيد يأتيه صدى الموسيقى وأغانيه، و" في قلبك، يا سنيور، طائر لا يغنّي".

مرّة قالت له:

قالت: احذرني أنا ممثلةْ!

ربّيتُ المتاهاتِ في حوضِ زهورْ

ومن قطّةٍ وبقايا خنجرٍ من حبرٍ أحمرَ غمّستهُ بالعطورْ

ركّبتُ قصيدةْ

ومن حلمينِ ركّبتُ واقعاً

وبنقطةْ

فصّلتُ حدودَ إمبراطوريةِ وعيٍ عن أُخرى.

قال: جذوريَ في هيروغليفيةِ الظلِّ والنورْ

ووجهيَ حرفيّ وأعماقي مجازْ

يمكن الكون بأي لهفة [illegible]

النفس.

أكملت رقصتها، وأغنيتها، ونظرت للبلكون كي ترى

صدى الأغنية في وجهه. لم تجد أحداً البتّة. كان المونتير قد

تحوّل إلى مرآة سائلة يلمع فيها القمر وتسيل، قطرة قطرة،

على البلاط، وتتجمع في شكل بحيرة صغيرة، بينما تحوّل

بمسدسات. "من قتل المونتير؟". سألها ضابط الشرطة، وأشعل الضوء، وحدَّق في عينيها، عينيها الخضراوين الجميلتين القلقتين.

" ما الذي حدث للمونتير؟" سألها، بصوت فيه إغراء، وعذوبة، وشعرت. ناولها سيجاراً كوبياً، وأشعله لها بقداحة مذهبة:

" ما..ما...ما ما..ذا..حدث..؟"

كان مرتبكاً، وحسبت للوهلة الأُولى أنَّه يناديها بـِ"ماما!ماما". نفخت الدخان في عينيه، وقالت، حين حدق في شفتيها بشهوة:

" قصْ

كلَّ هذا الجزءْ

من الفيلمْ!".

(وخرجت، تاركة الشقَّة، ليلاً، وحدها، للأستوديو. القاعة فارغة. الشعاع الإلكتروني للكمبيوترات فقط يشكِّل أفقاً. وضعت السيجار في المنفضة. خلعت ملابسها كلَّها. جسد فاتن، أُنثى. وقالت للفراغ في القاعة، متخيِّلة أنَّ المونتير لم يزل معها: سأرقص الآن القصيدة التي في ذهني، لك، وحدك، لا غير.

وبدأت ترقص، وتستدير، وبالتدريج صار لون وجهها صافياً، وكأنَّه من عالم آخر، وسال العرق، وأغمضت عينيها، ورقصت، رقصت، رقصت. ومنهكة صبَّت كأس شاي لنفسها، بصمت، بلا كلام، وقعدت في مقعد الجلد الأسود، حيث كان يجلس المونتير. بعد زمن انتبهت للشاشة الإلكترونية: عليها كانت، بخطٍّ كوفي، في الوسط

بالضبط، جملة: "القصيدة التي في ذهنها". آخر محاولات المونتير.. آخر.. آخر ضربت مفتاحاً وبرزت على الشاشة.

"القصيدة التي في ذهنها"

١. رأيت "بوستراً" لأوبرا كارمن في بار ليلي (رأى؟ فكَّرت المخرجة، أم اعتقد أنَّه رأى؟). هي كارمن، تلبس ثوباً غجرياً إسبانياً مكوَّناً من أثواب عدَّة. قطعة حمراء عالقة بالخصر تحتها قطعة من البنيِّ الداكن أطول من سابقتها، تحتها قطعة صفراء أطول من سابقتها تحتها قطعة بلون آخر أطول من.. وهكذا وهكذا. بقع ملوَّنة من الخصر للكاحلين تشبه مدرَجاً رومانياً لا يتوقَّف عند كاحليها، بل يستمر ويبتعد وينتشر حتى يرسم المنطقة المحيطة بها؛ هضاباً، ومروجاً، وتلالاً، جغرافيا الأندلس مرسومة بثوب! نسيج القصيدة التي في ذهنها كثوب كارمن، جغرافيا من قماش الكلام.

٢. هل يوجد معنى لثوب دون تاريخ الجسد، لقطع الثوب دون جغرافيا الأندلس والغجر، دون "كارمن"، أيضاً؟ لا! وكذلك القصيدة التي في ذهنها لا معنى لها دون "سياقها". ما أكتبه من تعليقات، هوامش، مقدَّمات، وكلامي عن "بوستر كارمن"، هو "سياق القصيدة"، جزء من معناها، وليس "خارجها". هكذا هو فنُّ "تصميم الأزياء": من يفصِّل ثوباً نسائياً في جزيرة نائية يدرك أنَّه يفصِّل "لجسد أُنثى"، في سياق، ودون ذلك ما معنى "الثوب"؟

قطعة واحد من الثوب

أرجوانيٌّ على الرمادْ؟ بطعمِ رعويّ.عندما تنفصلُ الروحُ
عن جسمها في حلمها ترحلُ نحوَ عوالمَ أُخرى، وتقابلُ
هناك أرواحاً هائمةً مثلها-

كنتُ أرعى الخيولَ وثيرانَ أهلي، على الجبلِ الأرجوانِ،
وأصطادُ طيراً بأسهمِ ظلٍّ
خضرةٌ في المدى ومساءُ
فتحةً لا أرى فيه أو ضمَّةً، كسرةً لا أرى، بل سكوناً فقط
في مرايا البحيرةِ ترعى الظباءُ
- لوحةً بالنقطْ -.
نمتُ من تعبٍ في ظلالِ الشجرْ

وتناثرت في حلمٍ، مثلَ سرب الفراشاتِ.. في الجهةِ المظلمةِ
لجبلِ القمرِ عندَ حدودِ "مملكةِ شو"
ورأيتُ "تسو".

قطعة اثنان من الثوب

نْسوْ في مملكةٍ صينيةٍ قديمةٍ، فوق ممراتٍ من قصبٍ وحبالٍ من الكتّانِ عالقةٍ كالفراشةِ البيضاءِ بين نتوءاتِ صخورٍ شاهقةٍ. الأوديةُ هاويةٌ مقمرةٌ تحتها الغاباتُ شاسعةٌ. من هبَّةِ الريحِ اتكأ على عصاهُ، به الحبالُ تأرجحتْ، وبدل أن يخشى من سقوطهِ للأسفلِ، أو في خوفهِ من الأمكنةِ العاليةِ، غمغمَ: الدربُ يبحثُ عن "توازنهِ: التوازنُ رقصٌ لا غضبْ".

وصفّرتُ لحناً قديماً، فقال: الحزنُ خيطٌ خفيٌّ في غنايَ، وقد أسيءُ إذا ما قصصتُ على سوايَ رؤايَ، الذهنُ كالعقربِ الصفراءِ في عزِّ الظهيرةِ، حين تطوَّقُ بالنارِ: تلدغُ نفسَها، إنْ لم تجدْ ما تلدغهْ!

قالَ: خيلي وأرضكَ سوفَ تدمَّرُ - بعد قليلٍ - وخطوةُ فلًّ

وأشارَ إلى الغربِ، تبدو الكواكبُ كومَ حبقْ

ويكونُ كذلك حبرُ السماءِ المضيءُ، لأن الدمارَ وشيكٌ، ولم

يصحُ غيري هنا،

بعضُ كلِّ

وفاح هجوم العبقْ

من يديهِ. دعاني لأدخلَ معبَدهُ..

قطعة ثالثة من الثوب

معبدٌ صينيٌّ قديمُ الطرازِ، ربَّما لرهبان بوذيين من خبراء "الكونغ فو". غابةٌ. صخورٌ من المغناطيس تربكُ حتى الطيرَ، وتوقظُ في الرهبانِ قوىً غامضةً.

في الطريقِ رأيتُ أفعىً فاتحةَ الخضرةِ ترقصُ رقصاً على رأس الذنبْ. سألتُ عنها. قال: دعْها هي في الأصلِ امرأةٌ داكنةٌ، نائمةٌ في الكهفِ الماطرِ، بين مرايا وعطورٍ يتخدَّرُ من يتنشّقُها، وتنفُّسُها موسيقىً تشبهُ نجومَ زجاجٍ تتلاطمُ- تجذبُ السامعَ نحو الدمارِ.

وحالاتُ تلكِ المرأةِ لا تنتهي عددا

فهيَ الآن أفعىً، وإن أهديتها ذهباً لن تجدَ روحاً، وإن أيقظْتَها شهوةً، لم تعدْ جسدا

حكمةُ الله كامنةٌ في المكانِ تأمّلهُ: من حكمةِ الأفعى الزحفُ
فوق الترابِ ومن حكمةِ النسرِ ما تشتاقهُ الأفعى؛ الطيرانُ
فوقَ السحابِ.. وفي حكمة "مملكةِ شوْ" ندعو ذلك
"أُسلوباً". الغابةُ مثلُ الكتابِ وفيهِ الأساليبُ عدّةْ
وكزنبقة النهرِ جذورُها في العمقِ ثابتةٌ وزهرتُها التي في
السطحِ تسبحُ في الريحِ، مع الموجِ، وضدَّهْ-.
في حكمةِ "مملكةِ شو"

ندعو

ذلك "أُسلوباً"..

وصعدَ درجاً،

- قاعةُ الديرِ حمراءُ، باردةٌ- وتركني خارجاً

عند العتبةِ. لا تنمْ الغابةُ مستيقظةْ!

وانزوى، قرب شمعةِ شحمٍ، ليقرعَ صنجَ نحاسٍ بمطرقةٍ

ويصغي للصدى في الخارجِ الغابةُ: الأعينُ الحمرُ للبغاءِ،

الفهودُ، القرودُ، النمورُ، وفي الداخلِ الخوفُ،

ومقمراً كان المدى

ورذاذُ ساقيةٍ من رؤىً أصبحتْ بددا

يغسلُ السمعَ مما تعودَّهُ...

قطعة أربعة من الثوب

دُمْ دِ دُمْ تِكْ.. دِ دا تِك

دم د دا تك.. د دا.. تِك.

قرعُ طبلٍ قريبُ الصدى، في نعومةِ رأس أفعى

كلَّما حرَّكتْ سُمَّها كدتُ أسعى

إليه، إلهي! لم أعد أحدا!

نسوةٌ بخلاخلَ من ذهبٍ ومشاعلَ من دُمْ دِ دا تـكْ.. دُمْ دِ

دا تِكْ!

وبدا شبحٌ كله مرحٌ؛

زهرةٌ زرقاءُ في يدهِ اليمنى وأُخرى

خلفَ الأذنِ اليسرى

وقبقابُ خشبْ.

رفع اليدَ نحوي وأنشدَ: دُمْ د دا تكْ دِ دا تَكْ!

انشودةُ الشبح

"لمّاَ الليلْ يْصيرْ نِمْرِةْ

نمرةْ رقطا تْشِمْ إيديكْ

وِبْقفزةْ خفيفةْ وْلفتةْ عنيفةْ تلفّ النِمْرِةْ من حواليكْ

خلِّ روحَكْ ترقصْ رقصةْ

مثلْ النمرةْ من حواليهْ

وِبْقَفزةْ خفيفةْ ولفّةْ عنيفةْ تشمّ الوردِةْ بين إيديهْ

لما الليلْ يْصيرْ سِروِةْ

سروةْ طويلةْ وْتعلى عليكْ

خلِّ إيديكْ يْصيرو جْناحْ

جْناحْ النسرْ يْصيروا إيديكْ".

وناولني وردةً، ومضى زمنٌ فيهِ لم أدرِ بي.

قطعة خمسة من الثوب

وأفقتُ صباحاً، وأرجفُ تحتَ المطرْ
عارياً. وعلى حجرْ
راهبٌ يشعلُ النيرانَ. تسوْ؟
أفأنتَ هوْ؟

قال:
"كما يركبُ الطفلُ فهداً عليكَ أن تركبَ خوفَكْ
فقَدَرْ
من لا يستألفُ الخطرْ
أن يحيا خائفاً.

مزينة بتطريزات بإبر دقيقة. خيط من الأصفر في مرآة
القمر. حاولت في الليلة
التالية أرجع من حيث جئتُ إلى جبل الأرجوان، سألت
تسو، قال ما قاله النفريّ:
لا تخرجوا قلباً عن حدٍّ معرفتهْ، فإن أخرجتموهُ فأوصلوهُ
إلى حيث أخرجتموهُ،
فإن رجعَ هو فلا تمنعوهْ!. قلت سأرجعُ. قال: ارجعْ!

أتبعُ رقصاً وإيقاعَ دفّ
في مدخلِ أوديةٍ مقمرةٍ. عرسٌ للجنِّ الزيتونُ مشاعٌ،
والخطوةُ وقْفْ
باسم الله. أُعلِّقُ خيطاً أصفرَ في مدخلِ كهفٍ. حَرّرْتُ
الكفْ

إصبعاً، إصبعاً، كي أخنقَ فيَّ ما فيَّ يخنقُ ما فيّ. هتفتُ من

الخوفِ: تَسو!

قال: كُنْ نمراً، زنبقاً، ثعلباً، حيةً، قطةً،

أسدا

في دورةٍ للتناسخِ لا تنتهي أبدا!

تلك "حكمةُ شو".

وعلى درجٍ من حجرٍ يتصاعدُ نحو المدى

نزلتْ كائناتٌ لا تدلُّ على طريقٍ للهدى

تحملُ نعشاً أبي كان فيهِ، ورائحةٌ من عطورٍ تفوحُ سدى

كاهنٌ في أولِ الموكبِ - يبدو قاضياً - "أشّرَ" للنعشِ ولي

غمغمَ قولاً عجبا:

"... وتركتَه صادياً

ولم تبعثْ لهُ

مائةَ ألفِ فرسٍ بيضاءَ، وقِرْبَةَ ماءْ

وحبيبتهُ الصغيرةُ السمراءُ من الآثارِ الآنْ!

فاجمعْ دراهمكَ الفضَّةَ من بخارِ الحمَّاماتِ التركيةِ، الليليةِ،
المضاءةِ،
ولا تقلْ: "الفرسُ لم تأت"، بل:
"أنا لم أذهبْ
وتركتُه صادياً!"

أو لم تتكلَّمْ
عن الطوابقِ العليا للحو حو حكمْ
حيث يحتكرون الفضائحَ.. ئحَ.. والمعرفةْ
وعن الطوابقِ السفلى للرغبةْ؟
حاولتَ فكَّ طلاسمِ الرغباتِ - الهواجسِ التي أفضتْ بكَ
إلى جبلِ النبعِ والآلهةْ.

لعلكَ لم تشأ،
أو تأخَّرتَ فقط،
أو نسيتْ

ولم تبعثْ لهُ

مائة ألفِ فرسٍ بيضاءَ وقربةَ ماءْ.

أم ما الذي دهاكْ؟

كي تجمعَ بين يديكَ هذا النبعَ من الدمعِ، وتتركهُ صادياً؟"

صالحْ أباكْ!

أبي؟

قطعة سرعة من الثوب

عشبةُ المُرّارِ في فمهِ الآنَ أم تربةٌ خضراءُ تنذرُ موتىَ جُدُدا؟

وبدا هادئاً في الفراشِ وفوقَ وسادتهِ مسنداً، وبدا يتأمَّلُ فيَّ

وفي نفسِهِ صُعُدا

ما كنت أشعرُ كم أحببتني أبدا

ما كنت أدركُ ما معنى الأبوَّةِ حتى جاءني ولدُ

عمرُهُ سنةٌ.. جاءَ من سُنَّةِ اللهِ كنهرِ النيلِ أو بَرَدى

وفهمتكَ.

قلتُ: كرهتكَ، لم أكُ أدركُ كم نتحوَّلُ، كم تصعبُ تربيةُ

الأبناءَ بلا حكمةِ الأخطاءِ.

غمغمَ: لم أكُ، أيضاً، من الأنبياءِ فما أنا إلا بشرٌ مثلُكمْ.

عمرهُ سنةٌ .. جاءَ يا أبتي.. منكَ، منّي، ومن أُمِّهِ.. جاء

للأرضِ منفردا

مثلي ومثلكَ هشّاً ما لهُ سَنَدُ

قال: نبدو عمالقةً من بلادِ الخرافةِ في عينِ أطفالِنا! شمعةٌ في

يدِ الراهبِ

المتبتِّلِ في الليلِ تكفي

ليولدَ في معبدِ القلبِ ظلٌّ غريبٌ وأضخمُ من أصلِهِ، وأنا

راهبٌ في منارةِ

قلبكَ يمتدُّ في ظلِّهِ،

بكَ رفقاً وبي، أيها الوالدُ- الولدُ..

تلك "حكمةُ شوْ".

فهتفتُ: تْسوْ؟

أفأنت هوْ

أتقمَّصتَ أبي؟ قال: أنا أنتَ أو أنا هوْ

لا فرقَ! ما كان كانَ، أما زلت تلعقُ جرحكْ؟

تعالَ، لنذهبَ، هيَّا، وإن

شرحَ اللهُ صدركَ كيف سأكملُ شرحَكْ؟

(... هنا ينقطع النص... واصلت المخرجة البحث عن التكملة فوجدت ما يلي فقط:

قطعة تسعة في الثوب

لعلَّ من المدهش أنَّ مسرحياً مثل شكسبير شطح بخياله فخلق شخصية تدعى "هاملت"، شبحاً، محض خيال، ومنذ قرون يأتي ممثّلون، من لحم ودم، ويضعون كلَّ موهبتهم، أعصابهم، روحهم، لكي يجعلون أنفسهم وأجسامهم مرايا لتلك الفكرة الشبح الظلِّ الذي لا وجود له "هاملت". ليس فقط مرايا، بل عجينة في يد "هاملت". والمدهش أكثر أنَّ "هاملت"، منذ قرون، بقي حيَّاً، في قارات عدَّة، ولغات عدَّة، وسيبقى، وكلُّ الذين مثلَّوه ماتوا، وقد لا يتذكَّرهم أحد، وإن تذكَّرهم فليس إلاَّ لأنَّهم شبح فكرة قديمة هي نفسها شبح ولد من خيال شكسبير. والابن ما هو إن لم يك شبح فكرة في ذهن أُمِّه وأبيه، مسرحية في خيالهما. وعندما يولد يتوقَّع الأب والأم منه أن

"يمثّل" ما توقعاه منه قبل ولادته، طموحاتهما، تخيُّلاتهما عن الحياة... إلخ.

و"تسو"، وكنّا وحدنا لم نزل في الدهليز المزيَّن بالرسوم (أي دهليز وأية رسوم؟ سألت المخرجة نفسها)، قال لي إنَّه سيمثّل لي ومعي "مسرحية" من تأليفه، فيها شخصية واحدة هي "كاهن نجران" تحديداً. ولبس قلائد من الكرز تلمع كالسراج، وجلباباً عربياً، وحمل عصاً، ومشى كعجوز يعرج، وفي كلامه لكنة غريبة حين خاطبني:

أنا للجسورِ الخشبِ لا أقدرُ أذهبْ. لا تلمني.

أسبقَ ورأيتَ أمكنةً كتلكْ؟

أفأنتَ من أوروكَ؟

قيل إفريزُ أسوارها من نحاسٍ، هل تحسَّستهُ، كي تتأكَّدَ، بالأصابعِ، منهُ؟ لا؟

فإذن تؤمنُ بالذي قيل عنهْ؟

أن تؤمنَ يعني أن تثقَ، أن تثقَ؟ أن لا تسألَ، أن لا تسألَ؟

يعني انطباقَ المكانِ عليكْ!

رجلٌ كان يثقُ بي

من بيبلوسَ في سوريا، قلت لهُ أن يدخلَ في قفصِ الأسدِ

فدخلَ ولم يجدوا

بعده غير فضلِ ردائهِ،

سبحانُ ربكَ في حكمتِهِ؛

لا معنىً للعقلِ دون الكثرةِ في عددِ البلهاءْ!

قلتَ من أوروكَ؟

هاجمني قربها ستونَ وحشاً - العددُ الكاملُ

صرتُ كسراً، كالصليبِ، عليهِ نسرٌ نازلُ

فوقه شفقٌ غامضُ الخضرةِ من كلامٍ فيهِ يرتفعُ القائلُ

مثل سربٍ من يمامٍ حين يدنو

من حدودِ القلبِ يعلو فيه لحنُ

لحنُ أسئلة -

والسؤالُ هو السائلُ.

قيل إنَّ البحرَ عينُ

تسبرُ الأنجمَ ليلاً

قيل إنَّ الكونَ دنٌّ

يُسكرُ القلبَ، فسكرٌ قولُ قيسٍ: "أنا ليلى"!

لا أبا لكَ.. وسِّع مداكَ، الحياةُ توسعٌ كرؤاكَ، وما يهمُّكَ من

أكونُ أنا سواكَ،

بذاكَ حدَّثني الحمامُ الزاجلُ.

والكون سرٌّ

ما الذي أدراكَ ما هُوْ؟

قِدرٌ من الطاقةِ يغلي، ومن طاقاتهِ بُعدُ الخيالِ - الذي يتفتحُ

فيكَ هُوْ!

والناسُ نخلُ

لوحةٌ بالفحمِ أو ضوءٌ وظلٌّ..

أين أسكنُ؟ في فيءِ خالتنا، النخلةِ، في نجرانَ، كنتُ أنامُ،

أُعلِّقُ السيفَ الذهبْ

وزنَّارَ أُمِّي عليها. قبل ذلك كنتُ أسكنُ في سبأْ

قصراً بَنتهُ قوىً تراكَ

ولا تراها هناكْ

حين تلفظُ فيهِ شيئاً تخرجُ الكلماتُ مثل البنِّ
مطحونةً أو مثل نثرِ الصدأ
فتحنُّ لقافلةٍ ترجعكَ لسوقٍ من الإنهاكْ،
بعد أن كنتَ بدأتَ بلمس الشعرْ!
لِمَ أقعدُ الآن في فيءِ النخلةِ في نجرانَ؟ أعلِّقُ سيفَ الذهبْ،
في فيئها،
وأجادلُ الكهنةْ!
وأنت منهمُ، أو هكذا فهمتُ، لا؟ لا شاعراً كنتُ ولا شبه
ذلكَ، بل فيلسوفاً،
وذلك أسوأُ، الشعر سحرٌ،
يفقر العمر لكي يغنى الكلامُ
أُدْخِلُ الشعرَ في ضدِّهِ- نثرِهِ، الشكلَ في اللاشكلِ، أي
مهنتي الفوضى، ليرتبك النظامُ
والذي يغضبُ يرضى، حين ينهارُ الكلامُ
مثل فهدٍ خارجٍ للصيدِ من جحرهِ،
فاجأتْهُ السهامُ

في هدأةِ الصبحِ. أتعرفُ من قالَ إنَّ الشعرَ حذفُ

اللا شاعريِّ

من الشاعريِّ؟ الشعر عندي سؤالٌ حين تسألهُ

يصبحُ عنك السؤالُ،

وحين تقفلهُ؟

لك هذا الرخامُ!

فاصغِ... النجومُ ترنُّ في وطنٍ بعيدٍ..

وتبدو قوافلُ شمعٍ تضيءُ الفراغَ الذي بين المجراتِ،

وترحلُ، حين تتعبُ،

من جديدِ

لا إشارةَ في الطريقِ، قلاع الفراغ على جانبيها، وقد طفحَ

اللاأكيدُ على الأكيدِ

والشعرُ حربكَ ضد مألوفِ قومكَ، وهْوَ غيرُك حين

يسكنك الغيرُ وكونكَ،

رغم ذلكَ،

أنتَ، في عزِّ النشيدِ

وهو موتكَ، نبشُكَ المكبوتَ فيكَ، وحبكَ للكائناتِ،

ونقدكَ، وهو سجنٌ

للإرادةِ في المريدِ.

فليكن... ليس شعراً ما أقولُ؟

فليكن! كنتُ أسكنُ في بابلَ، عند البوابةِ، في الليلِ أشعلُ

ناراً فوق السورِ،

النارُ ترى فيَّ، أنا

"في النارِ أرى". صدري مرآةٌ وأرى من مكانيَ نصفَ بابلَ

فيها. الحقيقةُ مرآةٌ

مهشمةٌ، والتهشّمُ فيها

يقولُ...

يتخيَّلُ البعضُ القمرَ مرآةً مهشمةً، أتخيَّلُهُ زنبركاً! لا تقلْ ما

الذي تتذكرُ قل

لي يا جميلُ

ما الذي تتخيَّلُ، فالمستقبلُ للخيالِ، وليس للذاكرةْ! أتخيَّلُ

القمرَ زنبركاً، أي

قوَّةً، حركةْ! فإليك بأُغنيةِ الحركةِ لفيلسوفِ النارِ الشفيفِ

الذي يرى

هيراقليطس:

"... أنت التخمُّرُ في العجينِ، وأنتَ التحوَّلُ في المستنقعاتْ

أنتَ استثناءاتُ الزمنِ العاديِّ: تداخلُ ما سوفَ يجيءُ وما

فاتَ،

فأنت مسافاتْ.

أنتَ الأُنوثةُ في الرجولةِ والرجولةُ في الأنوثةِ، أنتَ عقلٌ في

النجومِ وأنت نجمٌ

في العقولِ،

تَحرُّكُ المتناقضاتِ، تناقضُ المتحرِّكاتِ، فأنت مثلُ الكونِ؛

كنتَ، تكونُ،

سوف تكونُ ناراً للأبدْ

تشتعلُ بمقياسٍ وتخبو بمقياسْ.

تنزلُ مثل رفوفِ الحجلِ البرِّيِّ على أرصفةِ الأحلامِ، فتنقرُ

حَبّاً، من بين الشوك

وتتركُ حَبْ

تنامُ مشرَّداً فوق سطوحِ البيوتِ. وأمَّا غناءُ الغجرياتِ

فيأتي من بعيدٍ، وأمَّا القمرُ فكان أميلَ للغربْ.

لا ينمو القمحُ القمريُّ على القرميدِ الأحمرِ لكن تنمو-

لا أدري كيفَ، ولكن تنمو، تنمو، ونطيرُ إليك طموحاً

وفراشاتْ.

هذا هو الزمنُ الذي فيه المساءُ طغى على حلمِ البناتْ

هذا هو الزمنُ الذي فيه الندى

خان النباتْ

وبقيتَ وحدك شاهقاً؛ بين التقوقع والمدى

وتقيمُ صرحكَ في التوازنِ بين من سقطوا ومن وصلوا

نهاياتِ الشتاتْ.

أنت التناغمُ في التنافرِ، أو صفاءُ الماءِ في نهرٍ من الأحلامِ؛

يغري بالسباحةِ

والخوفِ من

غرقٍ دون مقدماتْ.

ترغب في التنبيهْ

للجريمةِ قبل وقوعِها، و وقوعِ الجريمةِ قبل التنبيه لها الروحُ

متاهاتْ

وهواة العمقِ يخافون التيه.

لما تعجُّ الشوارعُ بالنساءِ يخافُ الوعلُ من الحبِّ، ولَمَّا

الوجودُ يسيل دمّاً،

أو جمالاً،

لذةً أو راهباتْ

لا شرَّ في المتناقضاتْ.

ترتاحُ بالحركةْ

كالتوترِ في الوترْ

لا فرقَ بين مزاجِ السمكةْ

والتعكُّرِ في النّهرْ.

منطقٌ واحد يحكمُ الكونَ الذي منكَ هوْ؛ والكونُ نارٌ للأبدْ

تشتعلُ بمقياسٍ وتخبو بمقياسْ.

زرقةُ البحرِ في الشمسِ وجهٌ تغيرَ للماءِ في الملعقةْ

واحتراقُ الفراشةِ في النارِ وجهٌ تحرَّرَ للقيدِ في الشرنقةْ

ومداراتُ النجومِ مرايا لارتفاعاتِ الجسدْ

وسقوطِ الساقطينَ على الساقطاتْ

يا سيِّدَ الحركاتِ المرهِقةْ:

لا خيرَ في المتناقضاتْ

لا خيرَ في المتناقضاتْ

تجيءُ لنا

نروحُ لها الأمانُ هنا قناعٌ للقلقْ!

نتمزَّقُ، لا أدري كيفَ، ولكن نتوحَّدُ، لا أدري كيفَ،

ولكن يتوحدُ فينا ما

سوف يجيءُ وما فاتَ، فنحن

مسافاتْ.

نحنُ استثناءاتُ الزمن العاديِّ، خلودُ اللحظةِ عبر ملايين

السنواتْ.

لا ينمو القمحُ القمريُّ على القرميدِ الأحمرِ لكن ننمو، لا

أدري كيفَ، ولكن

ننمو،

ونطير إليكْ

ناراً في حلقاتْ!

فاهدأْ

لنا حين نبدأْ!

يا سيدَ الحركاتِ اهدأْ!."

كيف ذلكَ؟ يا لك من.. دعكَ من لطفِ النساءِ! غريبكَ ذلكَ! ليس شعراً ما أقولُ، وليس فلسفةً، بل مديح الشفيفِ الذي يرى هيراقليطس! للشبابيك بدوتُ، وكنتُ ما زلتُ على سورِ بابلَ، خيلاً، فهي، الشبابيكُ، ملزمةٌ بالجدارِ، وللنمورِ فريسةً أبدو، ولكن للنجومِ فراشةً، للنارِ ماذا بدوتُ؟ نظامَ طاقةْ؟

إن شئتَ رأيي،

مسرحٌ روحي، وعندي العمرُ دورٌ، ووجهُ الناسِ زِيٌّ

والكونُ سرٌّ، كائنٌ ضخمٌ، وحيٌّ

في الأساطيرِ كانت ظلمةٌ؛ شعّ على غمرِها عقلُنا الأوليُّ

وانتهى السحرُ ... ألستَ تفهمني الغريبُ أنا؟ وأنا

الغامضُ؟

ورؤايَ أفعىً في يديكَ؟ عليك فهدٌ رابضُ؟

لا يستطيعُ الوفاءُ لحبٍّ حبيبٌ لا يخونُ

لا وقتَ عندكَ؟ فليكن

فلكلِّ شيءٍ فيَّ حينُ!

حين أسجدُ للحياةِ وحين يعوزني اليقينُ..

أنا فيلسوفٌ. بربكَ، ما الذي سوف أفعلُ بالفلسفةِ ما دامت

ليست شعراً؟ وما

أفعلُ بالشعرِ الذي يحذفُ منِّي رغبتي في الفلسفةْ، مثلاً،

مثلاً، قلتُ، مثلاً!

والكلامُ تماثيلُ صوتي

أعبدُ الصوتَ، يسافرُ بين النجومِ للأبدِ، الشوارعُ بين

النجومِ طريقي لبيتي

كيفَ؟ ما رأيك في الأغنيةْ؟

في هذه الحياة أحيا لأعرف، لكن في الحياةِ الثانيةْ

سوف أرجعُ للأرضِ طفلاً نبيّاً، وأمشي.. خطوتي ذهبٌ

من شعاعِ الشمسِ

في الزبدِ

ويدي

سماءٌ حافيةْ

ما رأيكَ في القافيةْ؟

لا بأس بالفكرةِ؟ لا؟ أتريدُ تذهبْ؟ برك سباحةٍ زرقاءُ في

غايةِ السطحِ تلكَ،

العمقُ إما دائريٌّ أو عمودٌ، فجُزْها تصلْ بقعةً خضراءَ

محددةً بالبياضِ مخبأةً

في عباءاتِ السوادِ، تأمّل هناكَ - التأمُّلُ؟

أن تفهمَ ما كنت تعرفهُ دائماً - من غير أن تفهمه أبداً

أفما كنتَ مدىً

حينا وحينا صدى؟

أفما كان قلبكَ يرفضُ ما اخترتهُ، حتى حييتَ سدى؟

في قلبكَ الكونُ، فلا تعبدنَّ العيشَ مثل الوحشِ منفردا -

عد بسيطاً، ولا تحسبنَّ الكونَ منفىً،

ولا معبدا!

حوافَ الأفقِ تكون مذهبةَ هناك، فأعطِ أسماءَ لآفاقك

المرتبكةْ، وطرز الأمكنة

بقدمٍ من حجر أنحف من إبرةٍ، لا بالخطى المنهكة-

أنا كاهنٌ! كلَّما آخيتُ زهراً للخلودِ يقال إني زائلٌ! وإذا

وقفتُ تساقطتْ الأشياءُ

مني وفيَّ وحولي،

من سوف يبكي عليَّ؟ سأصغي لقولكَ! فاصغِ لقولي:

أنت تنحتني بالكلامْ!

وتقصُّ عليَّ تفاصيلَ موتي، بالذي مني تقصُّ،

خرابٌ عليّ وفيّ وحولي خرابٌ وتحتي.

تعبِّرُ عن قدرةٍ في النحتِ مطلقةٍ،

بانحداري إلى هوَّةٍ من حطامْ!

ما الهُوَّةُ؟ من أين أعرفُ ما هيَ؟ حيث يدورُ حوارٌ بين

الفوضى والشكل

الخشبِ الذي فيك فتتخلَّعُ، أنت المرتَّبُ، تنفتحُ هيَ المتاهة،

التي فيها تحسّ

بنقصٍ في القوةِ، أو..

أتريد تذهبْ؟ ما..

أثرثر للأبد؟

عادتي!

في فيء النخلةِ في نجرانَ، أعلِّقُ سيفَ الذهبْ

في فيئها، وأجادلُ الكهنةْ

وأنتَ منهمُ أو هكذا فهمتُ، لا؟ تاجر؟ لا، شكراً، تيمَّمتُ

بالترابِ، ولا أحتاجُ

إبريقَ ماءٍ من ذهبْ!

آه، طبعا. رُ... بْ.. وداعاً.

المخرجة منهكة. لا شيء سوى رذاذ من مطر إلكتروني يغمر جسدها العاري. شعرت بالبرد.

"قُصْ
كلَّ هذا الجزءْ
من الفيلمْ!".

قالت وغفت. جاء الضابط والشرطة للأستوديو للتحقيق معها في اختفاء المونتير، صباحاً، وخلعوا الباب ودخلوا، لم يجدوا غير امرأة من رخام، تمثال جامد وجميل، في مقعد أسود الجلد، وفي يده زنبقة زرقاء من حجر.

على شاشة المونتاج حلزون يحاول أن يتسلَّق ساحباً قوقعته خلفه. قلب الضابط بعض أوراق على طاولة الكمبيوتر مكتوبة بلغة "بريل"، وخرج، مع شرطته، قائلاً لمساعده: "أغلق الملَّف تماماً".

حسين جميل البرغوثي

(٥/٥/١٩٥٤- ١/٥/٢٠٠٢)

الأكاديمي:

(١٩٨٣) بكالوريوس أدب إنجليزي.

(١٩٨٧) ماجستير أدب مقارن.

(١٩٩٢) دكتوراه أدب مقارن.

الوظائف:

(١٩٩٤ - ١٩٩٧) محاضر جامعي، جامعة بير زيت.

(١٩٩٧ - ٢٠٠٠) محاضر جامعي، جامعة أبو ديس.

(١٩٩٧ - ٢٠٠٠) عضو مؤسس في بيت الشعر الفلسطيني.

(١٩٩٩ - ٢٠٠٢) عضو هيئة إدارية – اتحاد الكتّاب الفلسطينيين.

(١٩٩٧ - ٢٠٠١) مدير تحرير مجلة "الشعراء".

(١٩٩٦ - ١٩٩٧) رئيس تحرير مجلة "أوغاريت".

شعر:

(١٩٨٨) الرؤيا.

(١٩٩٦) ليلى وتوبة - قصائد من المنفى إلى ليلى الأخيلية.

(١٩٩٨) توجد ألفاظ أوحش من هذه.

(٢٠٠٠) مرايا سائلة.

نص:

(٢٠٠٢) حجر الورد - نص ما بعد حداثي.

رواية:

(١٩٨٤) الضفة الثالثة لنهر الأردن.

سيرة:

(٢٠٠١) الضوء الأزرق.

(٢٠٠٤) سأكون بين اللوز.

(٢٠٠٦) الفراغ الذي رأى التفاصيل.

نقد:

(١٩٧٩) أزمة الشعر المحلي.

(١٩٨١) سقوط الجدار السابع - الصراع النفسي في الأدب.

(١٩٩٢) الصوت الآخر - مقدمة في ظواهر التحول.

(٢٠٠٣) السادن، الناقة - قصص عن زمن وثني.

مسرح:

(١٩٨٤) المزبلة.

(١٩٨٤) موسم للغرايب.

(١٩٨٧) قصة ساحة الورد.

(١٩٩٤) روميو وجولييت.

(١٩٩٥) الليل والجبل - إعداد مسرحي.

(١٩٩٧) وجوه.

(٢٠٠١) حفلة على غفلة.

(٢٠٠٢) لا لم يمت.

فلكلور:

(١٩٩٨) ريشة الذهب - قصص من التراث الفلسطيني.

سينما:

(١٩٩٨) المعصرة - سيناريو فيلم روائي طويل.

(١٩٩٩) توتر - فيلم وثائقي - عمل مستشاراً فنياً.

(٢٠٠٠) الغرباء - فيلم وثائقي - وضع السرد والدراما.

(٢٠٠١) حريتي المفقودة - فيلم وثائقي - وضع المفهوم والدراما.

أغنيات:

قام بكتابة العديد من الأغنيات لفرق موسيقية مختلفة مثل: صابرين، الرحالة، سنابل، فرقة أحياء بلدنا.